مِن فريج بن فاضل لجميرا الثالثة

سيرة حياةٍ ودروسٌ ملهمة

يرويها خليفة بن فاضل المزروعي
ويعدها راشد خليفة بن فاضل المزروعي

مِن فريج بن فاضل لجميرا الثالثة

سيرة حياةٍ ودروسٌ ملهمة

يرويها خليفة بن فاضل المزروعي

ويعدها راشد خليفة بن فاضل المزروعي

المحتويات

شهادات عن خليفة بن فاضل المزروعي ٤

أبرز ما سيخرجُ به القارئ من هذه السيرة ٧

-إرث يزكّي النفوس- ٩

الفصل الأول — الرمل في كل مكان ١١

الفصل الثاني — البحر وأهوال الغوص ٢٥

الفصل الثالث — أسفاري والتحول الكبير ٣٦

الفصل الرابع — من سيرة التلاحم والعمل الدؤوب ٤٩

الفصل الخامس — حصاد العمر ٥٧

-كلمة أخيرة عن والدي- ٦٧

"شجرة العائلة المختصرة" ٧٠

تقديم وشهادات

شهادات عن خليفة بن فاضل المزروعي

شهادة طارش المنصوري

ابن خال خليفة بن فاضل:

تجمعني بالوالد خليفة بن فاضل حفظه الله وأمد في عمره ذكريات طيبة ممتدة، وأنا دائماً أسميه (عمي)، وتعود بي الذاكرة إلى الأيام الخوالي، وتحديداً إلى بيئة البحر التي كان عمي خليفة أحد رجالها المشهورين؛ ففي فريجنا، كلما تضافرت تباشير الصيد وظهر السمك وفيراً على الساحل، كنا نبادر بالذهاب إليه، وكان الكبار يبشروننا قائلين: «عمكم خليفة قادم الآن وسيأتي بالسمك»، فنركض بابتهاج نحو الشاطئ، وكنا نرقبه من بعيد قادماً على متن سفينته الخشبية (المحمل) التي كنا نسميها (الصمعة)، وبمجرد أن يرسو، كنا نتحلق حوله بالحديث والمسامرة، وكان يخصنا ويختار بنفسه أجود ما جادت به شباكه ليمنحنا إياه. لقد كانت لنا عنده حظوة ومكانة خاصة، وكنا نصعد إلى متن المحمل لنعاونه في رفع الأغراض وإنزالها.

ومن المواقف العفوية التي لا تنمحي من ذاكرتي أنني قصدتُ عمي خليفة ذات يوم لأخذ حصتنا من الصيد، ولم يكن معي حينها (مسجاج) وهو الخيط الذي تُنظم فيه الأسماك لحملها فلم أجد بداً من جمع السمك ووضعه في (ثباني) أي في طية الكندورة من أسفل، وأسرعتُ به إلى البيت، وحين رأتني الوالدة على تلك الحال عتبت عليّ مستغربة: (شو سويت كذي؟)، فأجبتها: «سرت أنا وعمي خلّاني، وحطيت السمك في الثباني[1].

إن الحديث عن تلك الحقبة يقودني بالضرورة إلى استذكار مجالسنا العائلية التي كانت تضم رجالات (يَل بن فاضل): عمي خليفة، وإخوته عبيد، ومحمد، ومطر، وقد أدركتُ الوالد (محمد)، أما (عبيد) فلم ألحق عليه. وفي المقابل، أدركتُ (مطر) رحمه الله، وعرفته رجلاً متديناً، صالحاً،

محافظاً على الصلاة. كان إذا رآنا مقبلين ينادي بصوته الوقور: (صلاة.. صلاة)، مستنهضاً فينا الحرص على العبادة، وكان يخصنا دائماً بمقولته الأثيرة التي لا تزال ترن في مسامعي: «يا عيالي يا عيال الشيبة.. من يابكم ما ياب الخيبة».[1]

لقد كانت أياماً ممتلئة بالخير والبركة، وذكريات جميلة عشناها مع رجال ذلك الزمن؛ فحمداً لله على ما كان، ودعاءً بالرحمة لمن غادرنا، وبالعمر المديد والصحة لمن بقي.

شهادة عيد بن علي بن عيد المري:

خليفة بن فاضل نعم النسيب، إرثه بنته أفعاله وخبرته، وله مكانة كبيرة وقدر ما يوفيه الكلام، وتميز بالأخلاق والكرم وصلة الرحم والوفاء دوماً.

شهادة محمد بن بطي بن غويفة المنصوري:

من الذكريات التي لا أنساها من سنوات الصبا، ذلك اليوم الذي رأيتُ فيه عمي خليفة بن فاضل قادماً من البحر ومعه فاضل بن مطر، وعند وصولهما، ناولني عمي خليفة حبلاً من طرف شبك الصيد، وطلب مني أن أمسكه، فمسكته ولم أفعل في ذلك النهار إلا هذا الأمر البسيط، وعند الانتهاء، أعطاني عمي خليفة سمكاً وقال لي: «خذه إلى البيت لخالتك»، ثم بعد يومين رآني مجدداً في الفريج، فناولني خمسين درهماً وقال: «هذا حقك»، وهذا المبلغ لم يكن بالقليل في ذلك الوقت، فسألته: «لماذا؟» فقال: «هذه حاصلتك من عملك»، وكان يقصد ذلك اليوم الذي أمسكت فيه حبل طرف شبكة الصيد.

أذكر هذا الموقف لأنه يختزل جانباً من طبيعة عمي خليفة؛ فقد كافأني من تلقاء نفسه على دور بسيط وأنا لم أكن إلا مارّاً بجانب البحر، ثم وجدته يعطيني مبلغاً كبيراً بالنسبة لي في ذلك الزمن،

(1) بطن الثوب أو الكندورة، وكان الولد يرفع طرف ثوبه ليجعله يشبه الجيب الواسع ليحمل فيه الأشياء الخفيفة كالتمر أو الأسماك

وهذا يعكس حرصه على حفظ الحقوق، وأمانته في تقدير جهد الناس، حتى وإن كان جهداً صغيراً. فقد عاد في اليوم التالي، بعد بيع السمك، ليحسب لي نصيبي، وكأنني كنت واحداً من الرجال الذين شاركوا في العمل.

شهادة أحمد سعيد بن مايد باليوحه:

تعجز الكلمات عن الوفاء بحق العم خليفة بن فاضل، فهو رجلٌ تجتمع فيه الحكمة، والوقار، وطيب النفس، وأصالة القيم، حين تجلس إلى جانبه تشعر بعطف الأب واهتمامه، إذ تجده يسأل عن الكبير والصغير، ويمنح من حوله شعوراً صادقاً بالقرب والمحبة. وهو كذلك معلمٌ لا تكاد تجالسه حتى تخرج منه بفائدة أو حكمة أو درس من دروس الحياة، وفي حديثه عن الماضي يمتلكُ ذاكرة حية تسرد لك تفاصيل زمنٍ صعب عاشه أهل الإمارات بالصبر والكفاح.

والعم خليفة يمثل نموذجاً للرجل الذي يحمل القيم التي تربينا عليها؛ من كرم، وتواضع، وصلة رحم، واحترام للناس، وحرص على التواصل معهم في أفراحهم وأحزانهم، فحضوره في المناسبات الاجتماعية ليس مجاملة، بل قناعة راسخة بأهمية الترابط بين الناس.

ومن مآثره الجميلة أنه يذكّر الشباب دائماً بالأيام الصعبة التي مرت بها البلاد، ليغرس فيهم حمد الله سبحانه وتعالى على النعم التي نعيشها اليوم، وليبقى الماضي درساً لا يُنسى.

ومن أجمل صفاته فرحته الصادقة بزيارة الضيوف لمجلسه العامر؛ فهو ينتظر الزوار بترحاب ويسعد بحديثهم، ويأنس بمجالستهم، ومن يجلس معه يشعر أنه أمام رجل كريم النفس، واسع الصدر، محب للناس، يرى في المجلس رسالة، وفي الضيافة قيمة، وفي التواصل حياة.

خلاصة السيرة

أبرز ما سيخرجُ به القارئ من هذه السيرة

١. القناعة تصنع البركة

كانت حياةً بسيطة في تفاصيلها، لكنها عامرة بالرضا، والقرب، وحمد النعمة.

٢. الفزعة أساس المجتمع

قوة الفريج كانت في وقوف الناس مع بعضهم في الشدة قبل الرخاء.

٣. العمل كرامة

لم يكن العمل مجرد رزق، بل طريقاً لحفظ الكرامة وبناء الرجولة والاعتماد على النفس.

٤. الصبر زاد الحياة

علّم البحر ذلك الجيل أن الرزق يحتاج إلى صبر طويل ونفس لا ينقطع.

٥. التعاون يصنع النجاة

كما لا ينجو الغواص إلا بسيبه، لا ينجح الإنسان وحده دون ثقة وتعاون.

٦. الأمانة تحفظ الحقوق

قيمة الإنسان تظهر في حفظه لحقوق غيره، ولو كان الجهد صغيراً.

٧. السمعة أعظم إرث

المال يذهب ويعود، أما الذكر الطيب فيبقى بعد صاحبه.

٠٨ حسن التدبير يحفظ النعمة

الرزق يحتاج إلى عقل، والنعمة تحفظها الحكمة لا المظاهر.

٠٩ المجلس مدرسة حياة

في المجلس تُحفظ الصلة، وتُصان المودة، ويتعلم الصغير من الكبير.

١٠ الامتنان يفتح البصيرة

من يتذكر قسوة الماضي، يعرفُ قيمة النعم التي يعيشها اليوم.

تقديم

-إرث يزكّي النفوس-

ثمة أسفارٌ نخوضها فتُغيّرنا، وهذا الكتاب أحدها؛ فقد وجدتُ نفسي قبل إعداده لستُ كما أنا بعده، وتغيّرت نظرتي لأمورٍ عديدة في الحياة من جذورها، إذ لا يمكن لامرئٍ أن يقرأ حياة آبائنا بتأملٍ دون أن تترك فيه أثراً بالغاً، وكأنها امتثالٌ حي لقوله تعالى: {فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}.

ومن هذا المنطلق، أدركتُ كيف تختلف أشكال الإرث الذي يتركه الرجل لأبنائه وأهله من بعده؛ أحدهم يورّثُ مالاً، أو بيتاً، أو تجارة، غير أنني لا أرى إرثاً أعظم ولا أبقى من السمعة الطيبة، والقدوة الحسنة، والقرب من الله، ومحبة الناس؛ فهذا غرس لا يُشترى بالمال، ولا يُبنى في يومٍ وليلة، بل يتطلب عمراً كاملاً من الصدق، والصبر، والإحسان، وحسن المعاملة مع القاصي والداني.

وأبي حفظه الله وأمدّ في عمره، دائماً ما تذكرني أفعاله بتلك القصة الجميلة من سيرة الفاروق عمر بن الخطاب حين رأى أبا بكر الصديق رضي الله عنه يخدم عجوزاً عمياء لا معيل لها، وهي لا تعلم أن كافلها هو خليفة المسلمين، عندها قال عمر كلمته التي خلدها التاريخ: «لقد أتعبتَ الخلفاء من بعدك يا أبا بكر». واليوم، أجد في هذه القصة ظلاً من حالنا مع أبي؛ فقد أتعبنا وتركنا في حيرة؛ إذ كيف نلحق بأثره في الخير ونحن ما زلنا في عنفوان الشباب، بينما مجاراةُ عزيمته غايةٌ لا تُدرك مهما سعينا وحاولنا؟ بارك الله في همته.

إن أبي -حفظه الله- نموذجٌ حيٌّ للرجل الذي تعلّق قلبه بالمساجد، تراه في طليعة الملبّين مع كل فريضة. وإن التفتَّ إلى كرمه، تجلت لك يدٌ بيضاء مفتوحة للفقراء والمحتاجين لا تغيرها الأيام، يكره أن يُردّ قاصدٌ وقف على بابه، مثلما يرى في صلة الناس ومشاركتهم أفراحهم وأحزانهم مروءةً

وواجباً لا يتنازل عنه أبداً. فكان أثره الأكبر فينا متجلياً في أفعاله التي تسبق نصائحه، ومواقفه التي تعلمنا أكثر مما تعلمنا إياه الخطب والكلمات.

ولا أنسى كيف كانت رحمته وحنانه يظهران في الأزمات، فخلال جائحة كورونا كان

يغضب إذا حاول أحدنا ردّ فقير أو محتاج عن بابه بحجة الاحتراز، لأنه كان يكره أن يُكسَرَ خاطرُ من قصده، مقدماً المروءة وجبر الخواطر على الخوف والحذر.

لقد عشنا مع أبي ونحن نرى أثر البركة في حياته؛ في عمره، ووده، وكرمه، وصلته لرحمه، وحضوره بين الناس بوجه طلق ونفس طيبة، وكان ولا يزالُ مثالاً حياً على أن المعروف لا يضيع، وأن الإحسان يعود على صاحبه خيراً في الدنيا قبل الآخرة. وكنا دوماً نحاول أن نلحق بخطاه، فنقوى أحياناً بعزمه، ونخجل أحياناً من تقصيرنا أمام عظيم فعله.

وفي صفحات هذا الكتاب، أضع بين أيديكم لمحات من حياة أبي ونشأته وكفاحه في زمنٍ لم تكن فيه الحياة سهلة؛ منذ أربعينيات القرن الماضي، حين كان الخليج يعيش ظروفاً قاسية، وكان الرجال يُصقلون بالصبر والتوكل على الله، وقوة الاحتمال في البر والبحر. سيروي لكم بعض هذه الأحداث بنفسه، وسنستخرج منها الدروس، فالأحداث كثيراً ما تتكرر، وإن اختلف الزمان والظروف.

وأكتب هذه السيرة ليبقى جيلنا متذكراً، ولتعرف الأجيال القادمة عظيم نعم الله علينا، وكيف انتقلت هذه البلاد من حالٍ إلى حال؛ بفضل الله، ثم بحكمة قيادتها، وكفاح الآباء الذين صبروا في ظروف يصعب على كثيرين اليوم تخيلها؛ فسيرة أبي ومن عاشوا تلك المرحلة ليست مجرد حكاية، بل هي درسٌ حيّ في الرجولة، ومعنى الحياة، وعمق الأثر.

راشد خليفة بن فاضل المزروعي

الفصل الأول

الرمل في كل مكان

عين ألتفتُ اليوم للوراء - أنا خليفة بن فاضل - وأتأمل الماضي، مسترجعاً ملامح جميرا التي ولدتُ فيها عام ١٩٤٠، أشعر وكأنني أنظر إلى عالم آخر غيبه الزمن تماماً، فلم تكن جميرا في أربعينيات القرن الماضي تمت بأية صلة لتلك الواجهة الحضرية المدهشة التي يعرفها العالم اليوم، التي تعدّ من أجمل وأغلى المناطق في العالم، وذلك بفضل الله ثم حكومتنا الرشيدة، بل كانت قرية ساحلية بسيطة من الرمال والخيام، حيث كان صوت الموج يتسيّد المكان كله، ممتزجاً في ليالي الصيف والشتاء بهمسات الريح في فضاء مفتوح لا تحده أسوار. فضاء غارق في ظلام دامس، إلا من أضواء برتقالية شحيحة ناتجة عن فوانيس الفنر(2) التي كان الأهالي يستخدمونها قديماً قبل دخول الكهرباء.[٢]

في هذه الأرض الطيبة ولدت، وعشنا في ترابط وثيق أنا وإخوتي: محمد، ومطر، وعبيد، وباقي أفراد عائلتي. ووجودنا في جميرا لم يكن وليد المصادفة أو العهد القريب؛ فقد جاء أبي فاضل في أواخر القرن التاسع عشر من ليوا -حيث تقطن قبيلتنا المزاريع، وهي إحدى قبائل حلف بني ياس-، واستقر في جميرا، وتزوج من حمدة بنت سعيد بن غويفة المنصوري، التي أنجبت له محمداً وعبيداً ومطراً، ثم وافتها المنية. ثم تزوج مجدداً من أمي عذيجة بنت بخيت المنصوري، وهي عمة عيد بن محمد بن بخيت، وكان عيد، الذي كنت أناديه دائماً بـ «خالي» يذهب معنا -حين كنتُ طفلاً صغيراً- للغوص والاصطياد، برفقة سالم بن عيد بن غويفة المنصوري وأحمد بن راشد الجميري، وبخيت بن راشد الجميري ومطر بن راشد الجميري، وقد اجتهد خالي عيد في تربية أبنائه: محمد، وطارش، وأحمد؛ فنشأوا على القيم الحميدة، وساروا على نهجه الطيب في بناء السمعة والمكانة الطيبة، حتى ترقوا في مراتب ومناصب رفيعة في الدولة. ثم ومع مرور السنوات، ترسخ حضورنا في المكان، حتى ارتبطت بنا جميرا وأصبح يطلق على منطقتنا التي سكناها اسم منطقة بن فاضل، نسبة إلى عائلتنا التي شكلت ركيزة من ركائز الاستقرار هنا.

(٢) الفنر: المصباح القديم المعروف الذي يعمل بالكيروسين (الغاز) ويتميز بوجود زجاجة تحمي الفتيل من الريح وكان أداة الإنارة الرئيسية

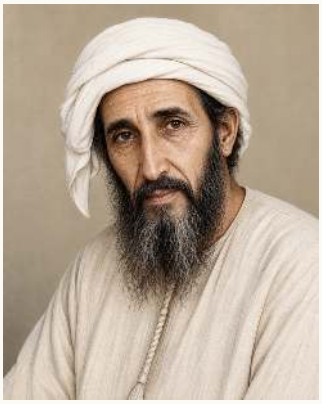

فاضل المزروعي، رحمه الله

وفي جميرا، كان كل شخص راعي بحر، لكن قبل التطرق للحديث عن البحر وحكاياته، أودّ الإشارة إلى طبيعة تلك المرحلة؛ فأبي فاضل المزروعي، رحمه الله، الذي وافته المنية في البحرين عام ١٩٤٢ أثناء رحلة عمل مع الشيخ سعيد بن مكتوم آل مكتوم، إثر نزيف لم يتوقف بعد عملية أُجريت له في كتفه، ظنّاً أنه كيس دهني، لم يترك وراءه تجارةً بحرية كبيرة نرتكز عليها، ومن هنا كانت القيم -التي سرنا عليها ونفعتنا على مدار حياتنا- هي إرثنا الكبير، لقد أثبتت الأيام في جميرا أن البدوي لا تهزمه الجغرافيا؛ فإذا ما قادته ظروف الحياة من رمال البر إلى أمواج البحر، فإنه لا يتغير، بل يحمل قيمه وأصالته وسعيه للرزق الشريف أينما حل وارتحل، ليصنع من قسوة البحر امتداداً لصلابة البادية.

لقد مرت ثمانية عقود على تلك الطفولة، وتغير شكل الحياة والمكان بشكل جذري، إلا أن ذكريات الماضي لا تفارق مخيلتي، وأحنُّ لتلك البساطة الفطرية التي كنا عليها، مجتمعاً وأفراداً وأمكنةً. لقد سافرتُ كثيراً، وعشتُ من التجارب ما يملأ الصدر، وقابلتُ أشخاصاً من دول عديدة، لكنَّ شيئاً لم يستطع قطُّ أن يطمس في ذاكرتي الصورة القديمة لجميرا برملها وبحرها الذي صادقناه على مر

الأعوام، وكان مصدر رزقنا الأهم، وهو نفسه البحر الشاهد اليوم على نهضتنا الكبرى، إن هذه الذكريات التي أظل أتحدث عنها مع أبنائي ما هي إلا انحناءة حبّ واعتزاز بالبدايات الأولى؛ وبجميرا التي أحببناها من كل قلوبنا، ذلك الفضاء الرحب حيث كانت الأرض مشاعاً للجميع، بلا أوراق ملكية أو خصومات أو أحقاد، أتذكر كيف كان الجار في جميرا يأنس بجاره أينما حل، وإذا ما أراد رجل نقل خيمته، قوضها وارتحل بها وأقام حيث أراد، دون خلاف أو عتاب، فقد عاش الجميع كعائلة واحدة.

واليوم، عندما أمشي في شوارع جميرا الحديثة وأرى كل العمران من حولي، أعرف تماماً أن تلك البساطة القديمة لم تختفِ؛ بل كانت هي البذرة التي أثمرت كل هذا التطور. هذا الجمال كله، أصله ممتد من قلوب أولئك الرجال الذين تقاسموا يوماً رمل هذه الأرض وعاشوا تحت سمائها.

أما عن مجتمع جميرا قديماً، فقد توزع على شكل فرجان صغيرة متقاربة، يضم كل فريج منها من عشر خيام إلى خمس عشرة خيمة على الأكثر، وكانت المسافات بين هذه الفرجان قصيرة جداً ومكشوفة، فبين فريجنا وفريج الحواضر القريب منا، لم تكن المسافة تزيد على نصف كيلومتر، وفي المجمل، كانت جميرا بأكملها حوالي عشرة فرجان متناثرة على طول الساحل، تشكل في مجموعها شبكة اجتماعية متلاحمة، يتسامر رجالها في مكان واحد، ويهبون لنجدة بعضهم عند الخطوب، ويعملون جميعهم في البحر بشكل أساسي.

وإذا ما أردنا تفصيل ملامح تلك الجيرة وسكان فريجنا، فإن الذاكرة تستحضر فريج الحواضر الذي قطنه ضاحي الجد مع أخويه تميم وعبيد؛ حيث سكنوا فيه مع جماعتهم وخدمهم، وكان ضاحي رجلاً ذا مكانة اجتماعية مرموقة، قريباً من القيادة، وكلمته مسموعة بين الناس، وكان يمتلك العديد من المراكب البحرية التي عُرف بها في ذلك الزمن، وقد أنجب خمسة أولاد هم: خلفان، وسيف، ومحمد، وجمعة، وسعيد. أما أخوه تميم فقد أنجب سعيد، وثاني، ومحمد، ولأخيهما الثالث عبيد ولدان، وهما علي وعبد الله.

أيضاً من أهالي الفريج خميس بن حاضر، وقد تزوج من عوشة بنت ضاحي، وأنجبت له حاضر، وطارش، وخلفان، وانتقلوا إلى أبوظبي. وخليفة بن حاضر وهو من سكان فريجنا جاء من

الشرق، وسكن عند الحواضر، وتزوج عفراء محمد "الشومي"، وأنجبت له حارب ومحمد، ثم تزوج مرة ثانية ورزقه الله عبد الله وماجد من الأولاد.

ومن أهالي المنطقة كذلك: بطي بن عمر المنصوري، وخلفان بن أحمد المنصوري، وخالي عيد بن محمد، وعمّه سالم بن عيد، والشيخ جمعة المنصوري وعياله، وكان الشيخ جمعة قد انتقل من أم سقيم واستقر في فريجنا، ومن الجيران كذلك خليفة بن قضيب، رحمه الله، وهو من أهل عجمان، جاء بمفرده من الكويت حيث كان يعمل مع إخوته، وقد كتب الله له خاتمة طيبة؛ إذ توفي وهو متوضئ وفي طريقه إلى المسجد لأداء صلاة العصر، بعد أن أصابته وعكة صحية قبل دخوله المسجد، فانتقل إلى رحمة الله من حينها. وسكن في منطقتنا أيضاً قوم "العقادي"، وكان للعقادي (الجد) اثنان من الأبناء، وهما عتيج ومحمد، ولعتيج ابنان وهما سعيد وخميس، أما محمد فرزقه الله بخمس بنات، وكان معروفاً بين الناس بأنه «حمامة المسجد»، لتعلّق قلبه بالمسجد وحرصه الدائم على الصلاة فيه.

ومن الذين عاشوا بيننا كذلك سيف بوعميم، الملقّب بـ «مهدرس»، وأخوه عمر بوعميم، وقد تزوج عمر من شمسة بنت ضاحي، وتزوج سيف الصغيرة بنت ضاحي، ثم افترقت عن سيف وتزوجت لاحقاً من علي بن عبيد، رحمهم الله جميعاً، ونذكر أن سيفاً وعمر لم يُرزقا بالذرية. كما وفد إلى المنطقة، منذ زمن بعيد، علي الجلّاف، وخلّف من بعده سالماً وعبيداً ومحمداً، وقد انتقل محمد لاحقاً إلى العين.

ونحن إذ نستذكر في هذه الصفحات أهل المنطقة، وكل من عاش فيها وشارك أهلها أيامهم؛ ليعرف جيل اليوم والأجيال القادمة أن آباءهم لم يعيشوا وحدهم، بل تقاسموا لقمة العيش، وتعاونوا في مواجهة قسوة الحياة، وكان بعضهم لبعض عونًا وسندًا. ومن الوفاء أن نصل أبناءهم، ونسأل عن أهل آبائنا، فهم امتداد لذاكرة الفريج، وجزء من تاريخه وحقّه علينا.[٣]

وفي ذلك الزمن، عشنا تحت وطأة ظروف مناخية قاسية، لكننا طورنا نمط حياةٍ يعتمد على الانتقال الموسمي بين الساحل والداخل، وكانت انتقالاتنا تتم بحسب تقلبات الفصول. ففي فصل القيظ الذي لا يدخل فلكياً إلا مع ظهور وطلوع الثريا في السابع من يونيو، كنا نرحل مبتعدين قدر الإمكان عن شاطئ البحر؛ لتجنب رطوبته الخانقة التي لا تطاق، نشد رحالنا ونسير متوغلين في الرمل نحو الداخل، متجهين بالقرب من المنطقة التي تعرف الآن بشارع القوز، حيث كانت توجد مساحات النخيل والظلال الوافرة، هناك كنا نقيم في بيوت العريش المصنوعة من سعف النخيل، وكانت هذه البيوت بتصاميمها تسمح بمرور النسمات العابرة التي كانت تخفف من وطأة القيظ، أما إذا أطل نجم سهيل في السماء معلناً بداية «الصفري»[3] وانكسار الحرارة، كنا نعكس المسار

(3) في تقويم الدرور المحلي هو فصل الخريف الذي يعقب القيظ (فصل الصيف عندما يشتد حره للغاية)، وفي الصفري تعتدل الأجواء وتبدأ الطيور بالهجرة

ونقترب مجدداً من الساحل لنسكن في خيام صوفية متينة، نضربها قريباً من البحر، لنكون على مقربة من مراكبنا، إذ اعتمد أهل جميرا على الصيد طوال فترة الشتاء، وبيع ما يصطادونه في أسواق دبي.

ولم يكن هذا الانتقال الموسمي وبناء البيوت مجرد عملية مادية شاقة، بل كان تجسيداً حياً لروح الفريج؛ ففي ذلك الزمن كان التضامن الاجتماعي هو القانون غير المكتوب الذي يُسيّر حياة الناس في جميرا، ويتجلى هذا التضامن بوضوح في طريقة بناء تلك المساكن؛ فقد كنا نتعاون معاً في بناء بيوت العريش الصيفية، حيث كان يجتمع رجال الفريج ليساعدوا الجار في جمع السعف وشد الحبال وإقامة الجدران دون مقابل، ولم يكن هذا التآزر محصوراً في البناء فقط، بل كان يمتد ليحكم أدق تفاصيل حياتنا اليومية؛ فلم نكن نعرف الأنانية أو الشح، وإذا حان وقت الطعام، اجتمعتِ العائلة على طبقٍ واحد، يتشاركون الطعام الموجود، والنساء كذلك كنّ يجتمعن على طبق واحد، فلا يأكل أحدٌ بمفرده أبداً، لتظلّ القلوب ملتحمة والبركة حاضرة. وفي الأعياد والمناسبات، كنا نصنع في بيت أخي محمد الهريس ونوزعه على الجيران والأهالي لتقاسم الفرحة، فتعلمتُ منذ صغري أن اللقمة مهما كانت شحيحة، فإن قيمتها الحقيقية تتضاعف وتتسع حين تقسمها المودة والشهامة الفطرية.

أما خيام الشتاء فكان أمرها مختلفاً، إذ اختص بنصبها وصناعتها بعض الأشخاص الذين عرفوا في جميرا، ومن أبرزهم علي بن عيد المري، وأحمد بن راشد الجميري، ومبارك بن مطر، وكان الواحد منهم يتقاضى مقابل عمله في بناء الخيمة مبلغاً يتراوح بين خمس عشرة وعشرين روبية، وهو مبلغ كان له قيمة معتبرة في تلك الأوقات. لكنْ رغم المهارة العالية والخبرة التي كانوا يتمتعون بها في تثبيت الخيام، إلا أن الطبيعة كانت تفاجئنا أحياناً بقسوتها، لنجد الأمطار تهطل فوق رؤوسنا بغزارة وتصاحبها رياح شمالية شديدة تعصف بالمنطقة، وكثيراً ما كنا نستيقظ على صوت انهيار الخيام، وفي مثل تلك الساعات العصيبة لم يكن أي إنسان يُترك لمصيره؛ فبمجرد سقوط خيمة، يفزع أهالي الفريج جميعاً، ويتعاونون بكل شهامة ونخوة ليساعدوا جارهم، برفع الأعمدة، وشدّ الحبال، وإعادة نصب الخيمة المنهارة وسط أجواء من التآخي وروح التعاون. هكذا كانت جميرا في

بداياتها الأولى التي عشتها، مجتمعاً بسيطاً في ماديته، لكنه غني وراسخ في قيمه الإنسانية وروابطه القبلية، أرضاً تتقاسمها الرمال والبحر، وتصنع رجالاً يولدون وعيونهم شاخصة نحو الأفق الشاسع.

الشيخ جمعة بن سيف المنصوري

ولم تكن بساطة الحياة في فرجان جميرا تعني غياب النظام أو العشوائية في إدارة شؤون الناس، بل كان مجتمعنا محكوماً بروابط ومرجعيات وقيم، وكان هناك أشخاص في كل فريج يكن لهم الأهالي كل الاحترام منهم الشيخ جمعة بن سيف المنصوري، الذي كان المرجع في أمور الدين والفتوى بحيث إذا ما وقع خلاف أسري داخل أية عائلة من عائلات الفريج يقوم بحله والتوفيق بين الجيران، وكان كذلك يخطب في الناس يوم الجمعة، بصفته إمام مسجد الفريج؛ باثاً في نفوسنا قيم الصبر والتعاضد والتراحم في ذلك الزمن الصعب، وللشيخ جمعة ثلاثة أبناء، وهم محمد وحمدان وعبيد، وابنة تدعى موزة، وهي التي تزوجها خليفة بن قضيب، وأبناء جمعة عملوا في الغوص والصيد، وأتذكر أن عبيد بن الشيخ تزوج من مريم بنت الظريف، ثم انتقل مع أنسابه قوم الظريفات إلى قطر وعمل هناك في التجارة بين دبي وقطر، يشتري من دبي الكثير من المنتجات والبضائع ويبيعها في قطر. واستمر لسنوات على هذا الحال، إلى أن استقر أخيراً في جميرا، وبدأ بأعمال المقاولات، وبقي بعض من عياله في أبوظبي، وبعضهم الآخر استقر معه في جميرا.

ومن الأشخاص الذين علّموا الأهالي في فريجنا، امرأة فاضلة اسمها علياء بنت حامد العتيبة، وهي زوجة محمد بن مطر العقادي، لقنت الصغار أساسيات القراءة والكتابة، وحفظتهم بعضاً من سور القرآن الكريم، وثمة امرأة أخرى في جميرا الأولى اسمها صنعة بنت حمد المزروعي درست الصغار أيضاً، وكانت امرأة معروفة بوقارها وعلمها بين نساء المنطقة، وهذا الأمر يعكس بشكل واضح وجليّ تضافر أهل الفريج في تربية أبناء المنطقة، لا أبناء بيوتهم فقط، كما يعكس الدور المهم للمرأة في نقل العلم والمعرفة، فعلى الرغم من بساطة ما كان متاحاً من تعليم في ذلك الزمن، كان الناس

يحرصون على مشاركة ما يعرفونه مع غيرهم، إيماناً منهم بأن العلم، مهما كان قليلاً، يبقى نوراً ينتفع به الناس.

لكن الطفولة في جميرا لم تكن تعني اللعب والدلال، بل كانت مرحلة قصيرة وعابرة، فيها يتمّ إعداد الصغار سريعاً ليصبحوا رجالاً يتحملون المسؤولية، ولم يكن من المعتاد أبداً أن ترى في الفريج طفلاً بلغ السابعة من عمره يقضي وقته في اللهو، فبمجرد أن يصل الصبي إلى هذا السن، يأخذه أبوه أو أخوه الأكبر ليلحقه بمهنة البحر الشاقة، حتى يتعلم الطفل منذ تلك السن المبكرة كيف يواجه الموج، وكيف يمسك بالشباك، وكيف يتحمل ملوحة البحر وشمس الهجير، ليصبح قادراً على كسب لقمته والاعتماد على نفسه.

وقد تفتحت عيناي على هذه الدنيا، وأنا أحمل عبء اليتم مبكراً جداً، إذ توفي أبي وأنا طفل صغير لم يتجاوز عمره ثلاث سنوات، ولم تكد تمضي سنوات قليلة حتى لحقت به أمي وأنا في السابعة من عمري. وفي مواجهة هذا الفقد المزدوج، تولى أخي محمد بن فاضل رعايتي بالكامل، وكان محمد أكبرنا، وعُرف في كل جميرا بأنه رجلٌ ذو شخصية وقورة، وكانت له هيبة وحضور ومكانة بين الأهالي، بوصفه أحد كبراء المنطقة، ولطالما فتح خيمته للجميع، مقصداً للناس من أي منطقة، وكان يستقبل الكلّ بحفاوة بالغة.

وأخي محمد هو الذي أسس شغل البحر، وتولى مسؤولية العائلة بأكملها، وكان يملك محملاً كبيراً أطلق عليه اسم «الصابي» مخصصاً فقط للغوص، إلى جانب العديد من المراكب الأخرى، وكان لديه الكثير من البحارة الذين يعملون على مراكبه، كذلك كان أخي مطر نوخذة، وعاش جلّ

حياته في حاله، من البحر للبيت ومن البيت للبحر، وعندما كبر في العمر ولم يعد يقدر على أعمال البحر، تم تعيينه هو ومحمد مطر الطاير ليعملا كمعرّفي جوازات عن أهالي جميرا والبدو، والمعرّف هو ضامن الهوية ومثبت الشخصية، وكان وجوده ضرورياً لإصدار جواز سفر نظراً لطبيعة الحياة القبلية والعمل الإداري في بدايات الاتحاد، ثم عَمل بعدها كمعرّف أراضي في دائرة الأراضي.

وعودةً للحديث عن أخي محمد، فقد كان رحمه الله بالنسبة لي هو الأب والمعلم والنوخذة الذي وجه مسار حياتي بالكامل، فقد قضيت طفولتي وشبابي في كنفه، ووجدت في زوجته شمسة بنت حمد المزروعي حناناً كبيراً، إذ كانت تعطف عليّ وتهتم بشؤوني، تماماً كما تحن على عيالها وتعتني بهم، فلم أشعر بيتمٍ أو تفرقة داخل ذلك البيت الذي اتسع للجميع بالمحبة والتراحم والتكافل، ومن أخي محمد، تعلمتُ أثمن دروس حياتي: الصبر الطويل على التعب، ومواجهة مشاق الدنيا بقلب ثابت لا يعرف الجزع، وعلمني كذلك أن عزة النفس، هي رأس مال الصياد والبحار، في زمنٍ لم يكن يملك فيه معظم الناس قوتَ غدِهم، وتعلمت على يديه أيضاً أن الجهد المبذول في البحر، مهما كان شاقاً، ومهما قلّ المردود في بعض الأيام، هو الخيار الوحيد الذي يحفظ للرجل كرامته وقيمته بين الناس وفي الفريج، وقد فجعنا بوفاته أثناء رحلة علاجه في الهند، وقد دفن هناك.

ومن المصادفات المؤثرة أن مريم بنت ضاحي توفيت كذلك في الهند، ودفنت في نفس المكان الذي دُفن فيه أخي محمد، رحمهما الله تعالى، وأدخلهما جنات النعيم، وكانت مريم بنت ضاحي زوجة بطي بن عمر، ذلك الرجل الذي عرف من صعوبة الحياة ما عرفه أهل الفريج في ذلك الوقت. وقد نشأ يتيم الأب، حيث توفي أبوه قبل أن يرى النور، فعاش بين الحواضر، وكبر في كنف حياة قاسية لا تعرف الترف، حتى اشتد عوده واعتمد على نفسه، وعمل في البر والبحر كما كان شأن كثير من رجال ذلك الجيل، وعندما جاءتْ البعثة الكويتية لدبي لعمل مشاريع تطويرية عمل معهم كسائق، ثم بتكليف من الشيخ راشد آل مكتوم رحمه الله، عمل مع أحمد بن ثالث في الإشراف على النخيل، ثم أُلحق بعد ذلك كجندي بالقوات المسلحة.[٤]

وعلى الرغم من القسوة الظاهرة التي كانت تفرضها الطبيعة برمالها الممتدة وهجيرها الحارق، إلا أن الله سبحانه وتعالى اختص جميرا بامتلاء جوفها بالماء الحلو الذي ألهم مجتمعنا أسباب البقاء والاستقرار، والمدهش في أمر هذه الطويان[4] أن الوصول إلى مائها لم يكن يتطلب عناءً كبيراً، بل كان يكفي أن يجتمع رجلان أو ثلاثة من رجال الفريج ويشرعون في الحفر بعمقٍ يعادل «طول الريّال» أي ما بين مترٍ ونصفٍ ومترين على الأكثر، حتى تنفجر عيون الماء العذب.

هذه الهبة الربانية حوّلت جميرا إلى مورد ماء ومقصدٍ للكثير من سكان المناطق القريبة والبعيدة عنّا، فكان الناس يأتون بدوابهم عبر الدروب الرملية الوعرة ليغرفوا من مياهنا العذبة، ثم يعودون لبيعها في أسواق دبي وبيوتها التي كانت تعاني شحّاً في المياه الحلوة، وفي السياق الحديث عن الأسواق أتذكر ذهابنا للتبضع من سوق الشندغة وديرة وغيرها من الأسواق، وكانت هذه الرحلة بالنسبة لنا رحلة شاقة للغاية؛ فالشوارع لم تكن معبدة، ولم تكن هناك وسائل مواصلات حديثة، وكانت الرحلة تستغرق في الذهاب ساعتين ونصف من المشي المتواصل على الأقدام، ومثلهما في رحلة الإياب، وكان امتلاك أحد الاهالي لحمار لا يعد مجرد اقتناء لدابة تُعين على مشاق السفر، بل كان يمثل ثروة كأنه يمتلك سيارة حديثة، يُنظر إليه بوصفه رجلاً ميسور الحال.

(4) الطويان هي آبار المياه وكانت جدارنها الداخلية تُبطن بالحصى والطين وهي مصدر المياه العذبة قديماً

«الإنسانُ لا تسعده كثرةُ المال وحدها، بل تسعده القناعةُ ووجودُ الأهل والجيران حوله»

هذه الرحلة إلى أسواق دبي كانت تبدأ فور انتهائنا من أداء صلاة الفجر، حيث يخرج الرجال والظلام لا يزال يبسط سدوله على الأرض، يسيرون بهمة مسترشدين بنسيم البحر البارد قبل أن تصحو الشمس من مرقدها، وكنا نصل إلى الشندغة أو ديرة مع تباشير الصباح الأولى، فتبدأ عمليات البيع والشراء، وبعد الفراغ من التزامات السوق المجهدة، ومع حلول وقت الظهر واشتداد القيظ، كان من الصعب جداً العودة فوراً في الرمال الملتهبة، فكنا نتوجه إلى بيوت المعارف والأقارب والأصدقاء في الشندغة أو غيرها، حيث نجد لديهم كرم الضيافة والترحيب، فنتناول وجبة الغداء معاً، ثم نرتاح قليلاً، وحين ينكسرُ الحر ما بعد العصر بقليل، نشد رحالنا مجدداً إلى فرجاننا في جميرا قبل أن يحل الظلام الدامس، وهنا علينا أن نستحضر نعمة الله علينا؛ فقد أصبح التنقل اليوم مريحاً بالسيارات المكيّفة، والمزوّدة بالتقنيات التي تزيد من راحة الإنسان ورفاهية الطريق، وهذا بفضل الله، ثم بما فتحه على الناس من علم ومعرفة. وإن الإنسان الذي يسعى في حياته إلى تسهيل حياة الناس، وتخفيف مشقتهم، هو بحد ذاته نعمة للناس وأثرٌ طيب في حياتهم.

ظل هذا النمط البدائي من العزلة والاكتفاء الذاتي البسيط يحكم تفاصيل حياتنا لعقود، حتى بدأت تباشير التغيير، وبدأت الحداثة تلامس أرض جميرا مع دخول سبعينيات القرن الماضي، وهو العقد الذي شهد ولادة الحركة التجارية المحلية، ولمسنا هذا من خلال ظهور بعض الدكاكين في المنطقة، أتذكر أول بقالة صغيرة افتتحت في جميرا الثالثة كانت بجوار المسجد وصاحبها محمد بن مرداس، وفي منطقة جميرا الأولى كان لكلّ من محمد بن محمود وحسن بن عبد الله الزرعوني دكانان، ولم يكونا مجرد دكانين صغيرين لبضائع محدودة، بل كانا متجرين أساسيين لتلبية احتياجات سكان المنطقة، ويزداد الإقبال عليهما في المواسم، وأتذكر أن البدو والحضر من المناطق القريبة كانوا

يقصدون هذين الدكانين وبالأخص عندما يتعلق الأمر بـ «تجهيز الأعراس» والمناسبات الكبرى لشراء اللوازم كلها من عندهما.

في ذلك الزمن كانت التجارة تقومُ على مرونة اجتماعية وأمانة متبادلة، تعكس شيم الأهالي؛ فكان الناس يشترون بضائعهم بيسر وسهولة، وكان الدفع بحسب الاستطاعة، فتجد أشخاصاً قادرين على دفع ثمن البضائع نقداً، وآخرين يشترون بالدين إلى حين ميسرة، دون قيد أو شروط معقدة، بل بكلمة شرف وثقة مطلقة، كانت هي الضامن الأول والوحيد لكل المعاملات في ذلك الوقت.

ورغم هذا الانفتاح التجاري الصغير وتطور الدكاكين، إلا أن مظاهر الحياة العامة واليومية ظلت متمسكة ببساطتها الشديدة الأولى لسنوات طويلة، وخاصة في مسألة الإنارة؛ فقد كان ليل جميرا حالكاً وموحشاً، يعتمد كلياً على أدوات إضاءة شديدة التواضع، مثل الفنَر القديم المعتمد على الكيروسين، أو تلك الفتائل القطنية الصغيرة المغموسة في الزيت، والتي كانت تجود بنور برتقالي شحيح.

في هذا الجو من الظلام وقلة الأخبار، تحضرني ذكرى لا تغيب عن بالي، حيث اقتنى أخي محمد جهاز راديو ووضعه في خيمته، وكان يجتمع عنده في المساء الشيخ جمعة بن سيف المنصوري، للاستماع للإعلامي أحمد سعيد، ومتابعة أخبار البلدان العربية، وبخاصة أخبار مصر وخطب الرئيس جمال عبد الناصر، وكان هذا الراديو يشتغل بالبطارية، مما جعل الناس حينها في حالة من العجب والذهول، ولم يكونوا مصدقين على الإطلاق أن هناك جهازاً صغيراً كهذا يمكنه أن ينطق وينقل إليهم أخبار العالم.

واستمر هذا الحال إلى أن حدث التحول الجذري والأكثر تأثيراً في تاريخ جميرا بدخول التيار الكهربائي والماء إلى المنطقة، وشكل هذا الأمر قفزة كبيرة غيرت وجه المنطقة بالكامل، ونقلتنا من الفقر والاعتماد الصبور على الآبار اليدوية، إلى عصر الضياء والعمران الذي نعيش في ظلاله الوارفة اليوم، شاكرين فضل الله ثم رؤية قيادتنا التي جعلت من رملنا القديم مكاناً يقصده جميع الناس من كل حدب وصوب.

وعندما أتذكر تلك السنوات، أقول إن الإنسان لا تسعده كثرة المال وحدها، بل تسعده القناعة ووجود الأهل والجيران حوله، لقد كانت حياتنا بسيطة، وفيها تعب، لكن الناس كانوا قريبين من بعضهم، ويساعد بعضهم بعضاً، ويقفون معاً في الشدة قبل الرخاء.

واليوم، عندما أرى ما وصلت إليه البلاد من نهضة وعمران، أحمد الله كثيراً على هذه النعم. فما نعيشه اليوم لم يأتِ من فراغ، بل هو بعد فضل الله ثمرة تعب رجال ونساء صبروا، وعملوا بإخلاص، وحافظوا على قيمهم.

دروس من هذا الفصل

- قيمة الجذور: من يعرف كيف نشأ المكان وأهله، يعرف كيف يحافظ على هويته وهو يواكب التحول.
- قيمة التعاون: البيوت، والانتقال الموسمي، والطعام، ومواجهة المطر والريح، كلها كانت تقوم على الفزعة لا على الفردية.
- قيمة الامتنان: استحضار مشقة الآباء يجعل نعمة اليوم أوضح في العين وأعمق في القلب.
- قيمة الاعتماد على النفس: التربية المبكرة على المسؤولية صنعت جيلاً يعرف أن الكرامة تبدأ من تحمل الواجب.

الفصل الثاني

البحر وأهوال الغوص

كان شهر يونيو من كل عام إيذاناً بموسم الغوص الكبير، حيث يبسط الصيف لظاه الحارق على رمال جميرا، وتنطلق الأوامر الحاسمة من النواخذة للاستعداد لتلك الرحلة التي كانت تعتبر واحدةً من أصعب وأهم الرحلات السنوية التي يخوضها الناس من أجل توفير القوت الحلال للأهل والعيال.

في تلك الأيام المشهودة كان شاطئ جميرا يخلع ثوب هدوئه ليتحول إلى مسرحٍ إنساني تلتقي فيه لوعة الفراق الحارة بأماني العودةِ بالرزق الوفير، ولا يمكن نسيان مشهد الأهالي وهم يودعون ذويهم قبل انطلاق المحامل نحو عرض البحر، في غيابٍ يستمر لأربعة أشهر بأكملها.

كان مشهداً صعباً، يتكرر في كل عام، حيث تبكي النساء عند مغادرة المراكب، ويرددن أهازيج حزينة تعبر عن خوفهن من غدر البحر والغياب الطويل، فكنّ يقلن: «وا عليا، وا على حالي، وا على الغوّاص مدّوا بَه، بين دُول ومويّ وأهوالي، من ثلاث شهور ما يوا به». وعلى الجانب الآخر من هذه المعاناة الإنسانية، كانت رحلة العودة بعد انقضاء الشهور الطويلة بمثابة عيد كبير تفوق بهجته كل عيد عرفناه في حياتنا على البر، فحين يقترب موعد القفال يزدحم الشاطئ من جديد، حيث ترابط النسوة في البقعة التي ودعن فيها ذويهن قبل أشهر، وينتظرن ظهور الأشرعة القادمة من المغاصات بترقب شديد ووجلٍ، وعندما تتأخر سفينة ما في عرض البحر؛ يسود الخوف والوجوم بين الأهالي، وما إن يلوح الشراع المنتظر ويتميز من بين السفن الكثيرة القادمة في الموكب المتراص، حتى تنفجر الهتافات وتطلق النسوة الزغاريد المبهجة، وتعم الفرحة الشاطئ بأكمله.

هذا العيد البهيج على الشاطئ لم يكن ليتحقق لولا وجود نظام صارم يسبق الإبحار بشهور، وهي العملية التي يقودها النوخذة بحنكة بالغة؛ إذ يتوجب عليه اختيار طاقم سفينته بعناية فائقة، تشمل الغواصين والسيوب والنهامة وبقية البحارة. وكان التركيز الأكبر ينصب على اختيار الغواص والسيب[5] تحديداً، لأن نجاح العملية مرتبط ارتباطاً وثيقاً بهما.

(5) السيب هو الشخص المسؤول عن سحب الغواص من قاع البحر بواسطة حبل يمسكه وينتظر الإشارة من الغواص

ولأن التنافس على استقطاب الغواصين الماهرين كان محتدماً ومشتعلاً بين نواخذة دبي ، فقد اتبعوا أساليب ذكية جداً للاستحواذ على الأكفاء ؛ فكان النوخذة يدفع مبلغاً تشجيعياً بسيطاً يعادل ربع روبية لأحد البحارة من ذوي الخبرة والحنكة، الذين عملوا في المواسم السابقة على متن السفن الكبيرة، بشرط أن يدله بأمانة تامة على أسماء وعناوين الغواصين الأقوياء الذين أبلوا بلاءً حسناً في الهيرات وصبروا على مشاق القاع، وبعد أن يعرف النوخذة أسماءهم يتوجه بنفسه إلى بيوتهم وفرجانهم ويبدأ معهم جلسات تفاوض لإقناعهم بالانضمام إلى محمله في الموسم الجديد.

ثم يتم الاتفاق النهائي على نظام الأسهم وتوزيع الأرباح المالية التي سيتقاضاها الغواص في نهاية الرحلة بعد بيع اللؤلؤ المستخرج، وكان الغواص بدوره يضع شروطه لحماية روحه في الأعماق؛ فيلتفت إلى النوخذة ويطلب منه بشكل مباشر إقناع رجل بعينه ليعمل معه في مهنة السيب، والسيب هو المسؤول الأول والأخير عن الإمساك بحبل الغواص لانتشاله من غياهب الماء، وكانت هذه المهنة على قدر هائل من الخطورة والحساسية؛ فالسيب يجب أن يكون متيقظاً ومشدود الانتباه إلى أعلى درجة طوال فترة وجود الغواص في الأسفل، فأي هفوة أو تأخر في الاستجابة لإشارة الحبل لثوانٍ معدودة قد تكلف الغواص حياته وتجعله يموت خنقاً في الظلمة. لهذا السبب، كان الغواصون يرفضون النزول إلى البحر إلا مع سيوب يثقون في قوتهم ونباهتهم

الفطرية، وكان النوخذة ينصاع طواعية لرغبتهم ويذهب للتفاوض مع هؤلاء الرجال الأشداء وجلبهم إلى طاقه.

حين تنتهي هذه المفاوضات ويكتمل جمع الرجال، يعمد النوخذة إلى تعيين رجل يثق في حزمه وخبرته العريضة ليتولى مهنة المقدمي، وهو الرئيس المباشر لجميع العاملين على ظهر السفينة والمسؤول عن إدارة الحركة اليومية وصيانة المحمل وتزويده بالمؤونة الكافية قبل الانطلاق، كما يختار النوخذة شخصاً آخر بمقام المستشار الأول ويُسمى المقدم، وهو رجل خبير بالأمواج وعارف بأسرار المغاصات والدروب البحرية بدقة بالغة، ويتميز بأنه يحل محل النوخذة ويقود السفينة بالكامل في حال غيابه أو مرضه، ولأجل هذه المسؤولية الكبيرة والرفيعة كان يُخصص له نصيب وافر من حصيلة الأرباح الإجمالية.

ومع اكتمال هذا الهيكل البشري المنظم، تتحرك السفن متساندة في عرض البحر في موكب مهيب، وحين تستقر فوق الهير المستهدف في عرض الخليج، تبدأ الحركة الفعلية للعمل الشاق، عندها تتمايز الأدوار وتتضح المراتب العملية على ظهر المحمل بشكل جلي. ورغم أن أغلب العاملين من بحارة وسيوب قد يشاركون في وظائف متعددة ومختلفة بحسب ما يراه النوخذة مناسباً لإدارة شؤون السفينة، إلا أن الغواص كان يمثل الاستثناء، فهو الشخص الوحيد الذي يُحاط بهالة من التقدير والامتيازات التي تميزه عن بقية الطاقم نظراً لجسامة تضحياته وخطورة مهمته.[٦]

وكان الغواص يمتاز بميزات مادية واجتماعية، فمن الناحية المالية كان يتقاضى ثلاثة أسهم كاملة من حاصل الأرباح في نهاية الموسم، شأنه شأن النوخذة والربان، ومن الناحية العملية، كان الغواص معفياً إعفاءً تاماً من أي مجهود إضافي خارج نطاق الغوص، فلا شأن له بالتجديف، ولا بجر الحبال الثقيلة، ولا بتنظيف السفينة أو صيانة الأشرعة، بل كان عمله الأوحد هو الحفاظ على طاقته البدنية ونفَسه ليخترق به جوف الماء.

أما السيب، فرغم أهمية دوره المحوري، إلا أن عمله لم يكن يقتصر على سحب الغواص فحسب، بل كان يمتد ليتولى العديد من المهام الشاقة والمستمرة منذ لحظة تحرك السفينة من البر وحتى

عودتها سالمة. وعلاوة على ذلك، كان التمييز الإيجابي للغواص يمتد إلى أدق تفاصيل المعيشة اليومية على متن السفينة. فعند النوم، كان الغواصون ينامون في المؤخرة، وهي أفضل بقعة في السفينة وأكثرها راحة وأماناً، وهي الناحية المخصصة لنوم النوخذة أيضاً، وعند تقديم وجبات الطعام الشحيحة، لم يكن الغواص يجلس مع عامة البحارة على السطح، بل كان يجلس جنباً إلى جنب مع النوخذة على المائدة ذاتها، يتقاسم معه الزاد ويستمع النوخذة لمشورته ورأيه في أغلب الأمور المحيطة بالعمل وبأماكن المحار.

وتبدأ دورة العمل اليومية القاسية مع بزوغ الخيط الأول للفجر، حيث يقف الغواص على حافة السفينة مستعداً للاختراق الأول للمياه المظلمة. وتبدأ عملية النزول بجلب حجر ثقيل يزن حوالي ثلاثة كيلوجرامات، وهو حجر يُربط بإحكام في نهاية حبل طويل، ويُصنع في هذا الحبل حلقة دائرية متقنة يُدخل فيها الغواص قدمه اليمنى قبل أن يقفز، حيث يعمل هذا الحجر بمثابة ثقل يسحبه عمودياً وبأقصى سرعة ممكنة نحو القاع، مستغلاً كل ثانية من نَفَسه الثمين قبل الضياع. وفي الوقت نفسه، يضع قدمه اليسرى في الديين[6]، وهي سلة مشبكة مصنوعة من خيوط متينة تُعلق في عنقه لتتدلى على صدره لتكون وعاءً يجمع فيه المحار، وقبل أن يلامس الماء جسده العاري، يضع الغواص الفطام[7] على أنفه، وهو مشبك صغير مصنوع بدقة من عظام السلاحف البحرية السميكة، ومهمته الأساسية هي إغلاق فتحات الأنف تماماً لمعادلة الضغط المتزايد في الأعماق ولمنع دخول الماء إلى مجاريه التنفسية مما قد يتسبب في غرقه الحتمي. كما يلبس في يديه قفازات جلدية قوية، وهي ضرورية جداً لحماية أصابعه وكفوفه من جروح الصخور المرجانية الحادة والأشواك البحرية السامة أثناء نبش القاع بحثاً عن الأصداف الملتصقة بالصخر.

وبمجرد اكتمال هذه الاستعدادات البدنية الدقيقة، يقفز الغواص في الماء فيهبط به الحجر بسرعة خاطفة نحو القاع، وما إن تلامس قدماه أرض الهير حتى يخرج رجله اليسرى من الشبكة ويملص اليمنى من حلقة الحجر سريعاً، ليعطي السيب الشاخص في الأعلى إشارة فورية بسحب الحجر والثقل

(6) الديين هو سلة صغيرة من ليف النخيل يعلقها الغواص حول رقبته ويجمع فيها المحار وهو في قاع البحر
(7) مشبك صغير كان الغواص يضعه على أنفه لمنع دخول الماء وهو في الأعماق

إلى السطح ليكون جاهزاً للغواص التالي في النوبة، ويبدأ الغواص حينها يسبح بحذر ملتصقاً بالقاع، يمسح الرمل والصخور بعينين مفتوحتين في عتمة الماء، يلتقط المحار بسرعة فائقة ويقذفه داخل الديين المعلق في عنقه، ويستمر في هذه الحركة لثوانٍ معدودة تمثل أقصى طاقة تتحملها رئتاه، فإذا شعر بأن أنفاسه قد ضاقت تماماً وأن حاجته للأكسجين أصبحت مسألة حياة أو موت، يعمد إلى حبل طويل آخر ممتد في يده، فيجره بقوة وعنف لعدة مرات متتالية. هذه الجرّة هي لغة التفاهم السحرية والوحيدة بينه وبين السيب؛ فبمجرد أن يشعر السيب بجرّة الحبل، يبدأ في سحب الغواص بكل ما أوتي من قوة عضلية وبسرعة فائقة إلى السطح حتى يخرج إلى النور ويفلت من الغرق الشاخص. يأخذ الغواص نفساً عميقاً يملأ رئتيه المتعبتين، يستريح لدقائق قليلة على الجانب، ثم يعاود الكرة مرة بعد مرة، في عملية مجهدة وقاتلة تتكرر طوال النهار دون توقف، من شروق الشمس وحتى غيابها وراء الأفق البعيد.

لكنّ أصعب ما في رحلة الغوص التقليدية لم يكن مشقة العمل اليومي البدني فحسب، بل تلك العزلة الطويلة التي تمتد لأربعة أشهر كاملة أو تزيد، وفي أربعينيات القرن الماضي، كانت الظروف أكثر قسوة وضيقاً، إذ كان البحارة يخرجون للغوص ومعهم مؤونة شحيحة ومحدودة جداً من الطعام والماء العذب يتوجب عليهم الحفاظ عليها طوال أشهر الرحلة الطويلة، الأمر الذي كان يجبرهم على تقنين شرب الماء العذب لدرجة شديدة، فكانوا يشربونه بالفنجان الصغير المقاس والمحسوب بدقة شديدة خوفاً من نفاده المفاجئ وموتهم عطشاً وسط مياه البحر المالحة التي لا ترحم.

لكن الحال تبدل جزئياً وتحسن مع دخول الخمسينيات والستينيات، حيث ظهرت في موانئ دبي سفن تخصصت في تقديم الدعم والتموين، وكانت وظيفتها الأساسية تزويد محامل الغوص بالمؤونة العذبة والطعام الطازج بانتظام، إذ كانت تأتي إلينا في المغاصات والهيرات البعيدة كل أسبوع، مما بث الطمأنينة والراحة في نفوس البحارة والغواصين، وأصبحوا يشربون الماء بالكميات التي يحتاجونها دون خوف أو تقتير، لوثوقهم التام من وصول سفينة المؤونة مطلع كل أسبوع.

ورغم تحسن إمدادات المياه العذبة، إلا أن الغواص ظل الهدف الأول والأساسي للأهوال والمخاطر الفظيعة الكامنة في أحشاء الخليج؛ فكانت الأعماق تحفل بكائنات بحرية عدائية تشكل كابوساً مستمراً، يقض مضاجعنا، وأبرز هذه الكائنات هو الدول، وهو قنديل البحر، ولا سيما الدول الأزرق الشديد السمية والخطورة. عندما يلسع هذا القنديل الشفاف جسد الغواص العاري في الأعماق، يترك فيه تقرحات وحروقاً جلدية واسعة تشبه كوي النار الحامية، تصاحبها سخونة حارقة في كامل الجسد وحمى وإنهاك بدني شديد يقعده عن العمل لأيام طويلة، ولشدة معاناتنا الكبيرة مع هذا الكائن الصيفي المباغت، كان النهامة يترنمون على ظهر السفن بنهمة حزينة شجية تصف هذا الحال الأليم وتقول كلماتها: «دول والماي شرى الحتّه، والبحر ما نوازي نغوصه، السنة عازم بيْحَنَا، يوم يانا السم في عقوصه»، ومعنى هذه الكلمات المؤثرة أن البحارة في حيرة عارمة من أمرهم، ففي الصيف يتغير لون مياه البحر وتصبح حمراء داكنة كأنها خُضبت بالحناء بسبب التغيرات الطبيعية الحارة، مما يجعل رؤية قنديل البحر الشفاف أمراً مستحيلاً ومعدوماً في الماء، فيباغت الغواص بسمّه الكامن في مجساته وعقوصه الطويلة ويلسعه على حين غرة.

ولم يكن قنديل البحر هو العدو الوحيد المتربص بالغواصين في تلك العتمة، بل كان هناك كائن آخر يُدعى فرس البحر ذو الفم المدبب والدقيق، والذي كنا نطلق عليه في لغتنا الدارجة وعالمنا البحري اسم بوزيزي، وسبب هذه التسمية الطريفة أنه كان يصدر أزيزاً مسموعاً ومخيفاً عند هجومه السريع. وتكمن خطورة هذا الكائن الصغير الفتاك في أنه يتجه مباشرة نحو وجه الغواص المكشوف وينقر بعنف العينين والأذنين، مسبباً عاهات مستديمة وإصابات بليغة تقضي على مستقبله في الغوص. وهناك أيضاً سمكة اللخمة الشيطانية، المدورة الشكل ذات الذيل الطويل الذي ينتهي بشوكة عظمية سامة؛ فإذا ضربت اللخمة غواصاً بذيلها القوي في الأعماق، قد تقتله في الحال أو تسبب له بتأثير سمها القاتل بتراً في الأطراف أو عجزاً دائماً يرافقه طوال حياته.

وإلى جانب المخلوقات البحرية، كانت الحبال ذاتها مصدر خطر مميت يهددنا؛ ففي أوقات النزول السريع والعمودي للغواص مستعيناً بالثقل، قد يلتف حبل النزول حول رقبته فجأة نتيجة الحركة الموجية السريعة فيخنقه في الأسفل قبل أن يصله أي عون، أو قد ينقطع الحبل تماماً نتيجة احتكاكه الشديد بالصخور المرجانية الحادة، فيجد الغواص نفسه معزولاً في الظلمة التامة، غير قادر على إرسال إشارة الجرّة المنقذة للسيب المترقب على السطح.

ولم تكن الأمراض الجسدية تترك أحداً من طاقم السفينة في حاله؛ فكثرة الضغط الناتج عن الغوص لفترات طويلة، ولمسافات بعيدة وعميقة؛ كانت تصيب الغواص بمرض الطنان، وهو دوي ووشيش مستمر ومزعج جداً في الأذن ينتهي في كثير من الأحيان بثقب الطبلة وفقدان حاسة السمع بشكل كامل، وإذا أصيب الغواص بالطنان المزمن وعجز عن البرء منه، فإنه يُحرم من دخول البحر كغواص نهائياً وينتقل مجبراً ليعمل سيباً على ظهر السفينة يجر الحبال لغيره. وهناك أيضاً مرض السمط، وهو اهتراء جلدي حاد وتقرحات واسعة ومؤلمة تصيب جلود البحارة والغواصين نتيجة المكوث الطويل والمستمر في مياه البحر المالحة وتحت أشعة الشمس اللاهبة دون تجفيف أو توفر ماء عذب لغسل الأجساد، ناهيك عن الأمراض الصدرية المزمنة والسعال الديكي وضيق النفس الذي كان يفتك بصدور الرجال طوال الرحلة.

أما المشهد الأكثر فجاعة على متن هذه السفن، فهو مشهد الموت الفجائي؛ فعندما يشتد المرض بأحد البحارة أو الغواصين ويعجز الجسد النحيل عن المقاومة ويفارق الحياة وسط البحر، لم يكن بالإمكان أبداً الاحتفاظ بجثمانه حتى العودة للبر نظراً لطول المدة وحرارة الطقس، فكنا نقوم بغسله بماء البحر المالح، وتكفينه بما يتوفر لدينا من قماش أبيض، وإقامة صلاة الجنازة عليه على ظهر المحمل في أجواء خاشعة، وبعد انتهاء الصلاة، يربط بجسده ثقل من الحجارة وينزلونه في أعماق البحر، وفي تلك اللحظة المهيبة والمؤثرة، يحصل أن يبادر أحد الغواصين الشجعان والأوفياء من رفاقه، ويطلب بكل شهامة ونبل أن ينزل خلف الجثمان في أعماق الماء، فيهبط معه سريعاً إلى القاع ليوجه جسد أخيه المستقر في مرقده المائي الأخير باتجاه القبلة، ويودعه الوداع الأخير في

ظلمة البحر الساكن، قبل أن يسحب الحبل ليصعد مجدداً إلى السطح، تاركاً رفيقه في حماية قاع الخليج الشاسع.

ومع انقضاء أشهر الصيف الأربعة العجاف الشاقة، وتبدل أحوال الطقس والأنواء البحرية، تبدأ رياح السهيلي الطيبة والمنعشة بالهبوب، وهي الرياح السنوية المنتظرة التي تبشر بنهاية الموسم القاسي وتعلن أوان العودة الحتمية إلى الديار في رحلة القفال. في ذلك اليوم المشهود الذي طال انتظاره، يصدر الأمر من السردال(٨)، وهو أمير البحارة والنوخذة الكبير الذي يترأس القافلة البحرية بأكملها ويقود السفينة الأولى في موكب السنيار(٩) المكون من عشرين أو ثلاثين محملاً، وقد كان محمد بن عيسى، نسيب قوم بن فهد من منطقة جميرا، أحد أشهر من عملوا في هذه المهنة القيادية بالمنطقة، حيث كان يقود السنيار كله بكفاءة ودراية بمغاصات البحر، وكان هذا النظام البحري يعتمد على خرائط دقيقة؛ حيث يُذكر أن الشيخ مانع بن راشد آل مكتوم كان هو السردال والمسؤول الأول عن المحامل في منطقة ديرة، وهو الذي ابتكر في عام ١٩٤٠ النالية بمساعدة السردال حميد البسطي، وهي الخريطة المعتمدة التي توثق بدقة مغاصات اللؤلؤ وأماكنها.[٧]

المهم أنه عند إعلان القفال، يطلق السردال طلقات نارية متتالية تدوي بقوة في أرجاء البحر وتصل أصداؤها لكل المحامل معلنة انتهاء موسم الغوص الرسمي. في تلك اللحظة الاستثنائية، تغمر السفن السعادة ومظاهر الفرح، وتُرفع الأشرعة الكبيرة لتطير بها رياح السهيلي باتجاه سواحل دبي وجميرا، وحين تصل السفن أخيراً إلى الشاطئ المحتشد بالبشر، ينزل الغواصون راكضين في مياه الساحل الضحلة نحو عائلاتهم وأطفالهم في حالة من اللهفة والشوق العارم؛ إذ إن الأعمال الشاقة المتبقية من سحب السفن الثقيلة إلى اليابسة، وتنظيفها من العوالق البحرية، ودهنها بالودك والصل(10) لتهيئتها للموسم القادم، لم يكن كل ذلك من شأن الغواصين إطلاقاً بل يتولاها بالكامل السيوب والبحارة كجزء من واجباتهم الممتدة. لذلك، كان الغواصون يهرعون مباشرة إلى أهاليهم فرحين مستبشرين بنجاتهم وعودتهم سالمين غانمين.[٨]

(٨) نوخذة خبير بأمور البحار يقود السنيار نحو الهيرات (أي مواقع الغوص) ويقرر موعد بدء الغوص ومتى رحلة العودة

(٩) السنيار مجموعة كبيرة من السفن البحرية المبحرة في الوقت نفسه باتجاه واحد للغوص

(10) الصل هو كبد الحوت، يطبخ جيداً ويدهن به خشب السفن لحمايتها من التآكل، أما الودك فهو شحم مذاب يحمي من الصدأ

مطر بن فاضل المزروعي

وعلى ظهر خشبنا الخاص عشت هذه التفاصيل الإنسانية الشاقة، ولم أكن يوماً بعيداً عن لهيبها وصراعها؛ ففي طفولتي وشبابي المبكر، خضت غمار هذه التجربة التي لا تنسى، وكان الطاقم المحيط بي يمثل عائلتي وسندي في وجه البحر، حيث كان النوخذة هو أخي محمد بن فاضل، وأتذكر جيداً رفاق تلك الرحلات الشاقة من أجل تأمين لقمة العيش الكريمة؛ ومنهم عبيد بن عابد، ومحمد بن علي الجلاف، وعبدالله محمد بن تركية، وسالم بن جمعة الروم، وعتيق بن عابد، وهؤلاء كانوا سيوباً على المحمل، ومن بين الغواصين الشجعان على المحمل أخي مطر بن فاضل الذي كان دائم التعبد على ظهر السفينة، ففي المساء حين كان الطاقم يغط في النوم، كان أخي مطر يستيقظ ويظل يصلي على سطح السفينة، ومن الذين كانوا يذهبون معنا في هذه الرحلات خالي عيد بن محمد المنصوري، وسالم بن عيد وأحمد بن راشد الجميري، وأخوه بخيت بن راشد الجميري، وغيرهم من أبناء جميرا الذين عركوا البحر وعركهم من أجل لقمة العيش، وأقول لأبناء وأحفاد كل من عاشوا معنا تلك الأيام: إن آباءكم خاطروا بحياتهم في رحلات قد لا عودة منها، وخاضوا أعمالاً شاقة لا ينجو منها إلا من كتب الله له السلامة، وكل ذلك من أجل ن يوفروا لكم حياة كريمة، لقد كافحوا ليَروا أبناءهم وأحفادهم في حالٍ أفضل من حالهم، وحياةٍ أيسر من حياتهم، فاستحضروا نعمة الله عليكم، واحمدوه على ما أنعم به عليكم؛ فقد أغناكم الله بفضله، وبدّل حالكم إلى خير، والشكر هو باب دوام النعم وبقائها.

«علّمني البحرُ أن الرزقَ يحتاجُ إلى سعيٍ حثيثٍ وتعبٍ كثير، وأن الرجلَ لا بدّ أن يصبر»

لقد علمني البحر أن الرزق يحتاج إلى سعي حثيث وتعب كثير، وأن الرجل لا بد أن يصبر، لأن البحر ليس يوماً سهلاً ويوماً صعباً فقط، بل هو صبر كل يوم. وعلّمني أيضاً أن الإنسان لا يستغني عن غيره مهما كانت قوته؛ فالغواص يحتاج إلى السيب، والمركب لا يصل إلا بتعاون الرجال الذين عليه، لهذا آمنتُ دوماً أن النجاح لا يقوم على شخص واحد، بل يقوم على الثقة، والأمانة، وتعاون الناس مع بعضهم.

دروس من هذا الفصل

- قيمة الشجاعة المنضبطة: الجرأة وحدها لا تكفي، بل لا بد معها من نظام وخبرة ويقظة تحفظ الأرواح.
- قيمة العمل الجماعي: في البحر لا ينجو الغواص وحده، ولا تصل السفينة إلا حين يحسن كل رجل موضعه.
- قيمة الصبر: الأعمال الكبرى لا تُحتمل بالحماس المؤقت، بل بطول النفس والقدرة على تكرار الجهد.
- قيمة الشكر: من عرف ما تحمله السابقون ليؤمنوا القوت والستر، شكر الله على ما يعيش فيه من يسر وأمان.

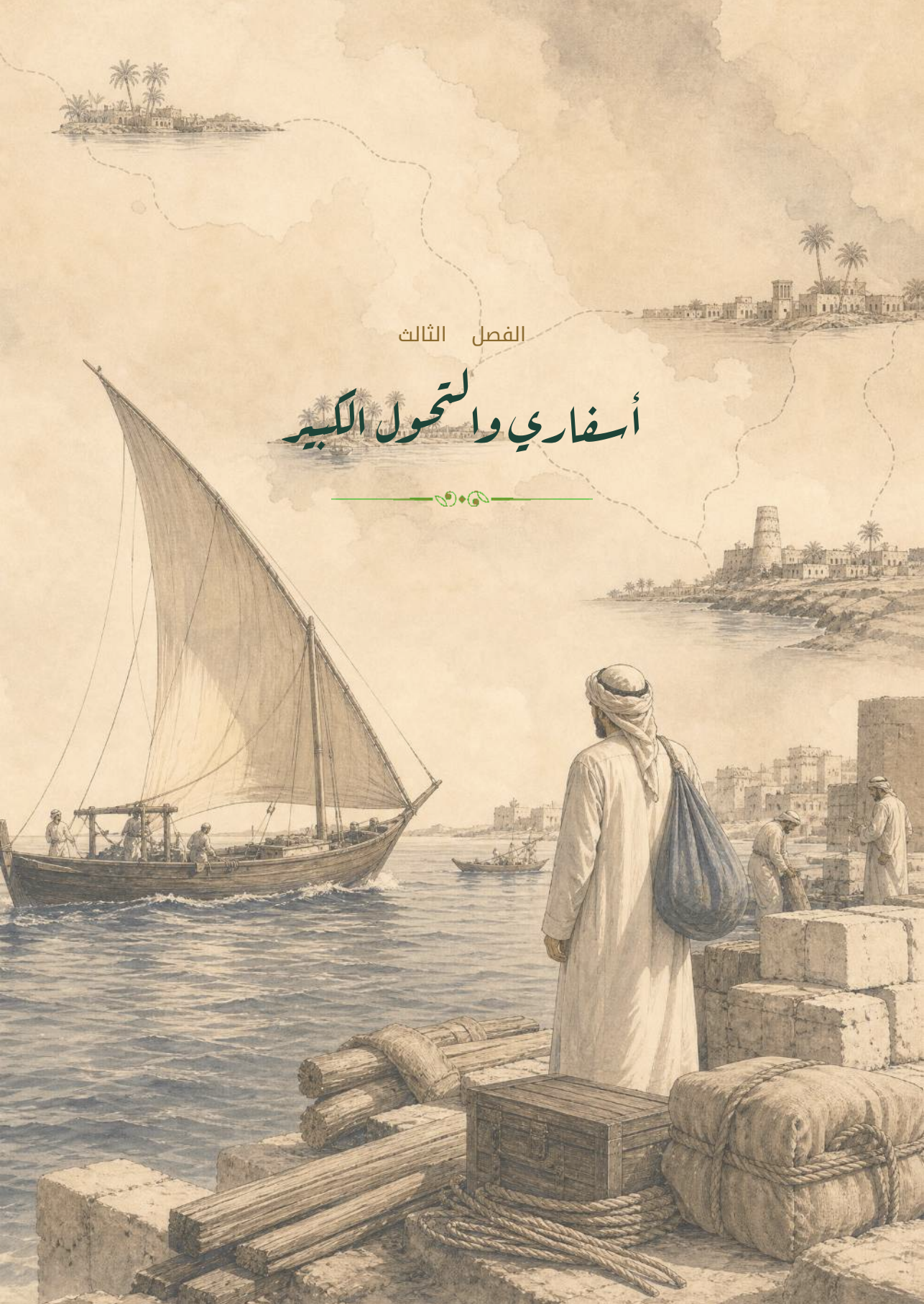

الفصل الثالث

أسفاري والتحول الكبير

حين أسترجع اليوم رحلتي في الكدّ والكفاح من أجل لقمة العيش، أوقن أن تلك الخطوات التي قطعتها متنقلاً بين الكثير من الأماكن والمهن، جعلتْ مني رجلاً يعتمد على ذراعه ونباهته؛ فمن عمر سبع سنين وأنا أشتغل وأكافح. عرفت معنى المشقة مبكراً في صيد الأسماك وبيع العومة وتدوير لقمة العيش بعرق الجبين. وقبل أن يتجاوز عمري الاثنتي عشرة سنة، وهي السن التي يداعب فيها الصغار أحلامهم الغضة، ألقت بي مقاديرُ الحياة في أتون السفر البعيد، وكانت أول سفرة لي نحو دولة قطر الشقيقة، وهي رحلة بدأت فيها بالتعرف على لغة الأخشاب العائمة، ومكابدة الغربة، حيث اشتغلت بحاراً على مركب يقوده نوخذة يدعى راشد بن أحمد الدليل، وكان رجلاً عارفاً بالمسالك ومقدراً للرجال، وكان أخوه عبدالله نوخذة أيضاً، يملك حنكة بحرية.

في تلك الأسفار الباكرة عشنا أياماً طوالاً برفقة رجال خبروا أمور البحر والصيد، من أمثال الغافري بن أحمد الدليل، وعبيد بن أحمد الدليل، حيث كنا نبحر في لنجات متوجهين إلى قطر، ونقضي هناك ما يقارب خمسة أشهر كاملة من الكد والعمل المتواصل تحت وطأة الظروف المتقلبة، ولا نكاد نرجع إلى سواحل جميرا إلا مع تباشير أول موسم الشتاء، لنبدأ على الفور دورة عمل جديدة في صيد الأسماك هنا وبيعها لتدوير عجلة الحياة الشحيحة.

ولم تقف حدود كفاحي عند عملي في البحر، بل دفعتني شدة العيش والمسؤولية الباكرة نحو تأمين المستقبل إلى السفر كذلك صوب المملكة العربية السعودية، لتبدأ محطة أخرى من الصبر امتدت لعامين متفرقين في قطاع البناء والتعمير، وسفرتي الأولى إلى السعودية، كانت باتجاه مدينة الخُبَر، ولم أكن وحيداً في تلك السفرة، بل سافر معي أخي مطر وعبيد، وجمعة بن ضاحي، وسعيد بن ضاحي، وعبيد الشيخ، وحمدان الشيخ، وهناك التقينا براشد بن يديدة

ومحمد بن راشد بو قراعة، فغدونا عصبة واحدة تشارك في أعمال الحفر والبناء، وقابلنا هناك أيضاً عبدالواحد الرستماني الذي كان يعمل آنذاك كاتباً في الشركة التي نشتغل فيها.

أما في السفرة الثانية، فقد كانت وجهتنا الدمام، لكن ضمن جمعٍ أكبر من أبناء جميرا؛ كنا قرابة ثلاثين نفراً، واشتغلنا معاً في أعمال الحفر، صابرين على التعب، مقتسمين العناء، وأتذكر أننا سكنّا هناك في خيمة في منطقة المقطع. ثم توالت الأسفار، فجاءت السفرة الثالثة لتقودنا هذه المرة إلى منطقة رحيمة بالسعودية، ورافقني فيها محمد بن علي، وأحمد الطاير ويافور بوعميم وعتيق مطر بن محون، وهناك في رحيمة، عشنا معاً «رباعة» نتشارك الأسمار وعناء الغربة والذكريات، لحين يأتي الشتاء كي نعود لجميرا لنصطاد السمك ويعود روتين حياتنا الطبيعي من جديد.

كما سافرتُ إلى دولة الكويت أربع مرات في شبابي؛ كانت الأولى منها في منتصف الستينيات. وقد التقيتُ في الكويت بخليفة بن حمد -خال ابن أخي أحمد بن محمد-، أما السفرة الثانية فكانت برفقة حمدان الشيخ، والسفرة الثالثة كانت مع سلطان السويدي، أما سفرتي الرابعة والأخيرة فكانت لإرجاع اللنج الذي عملتُ عليه لصاحبه التاجر الكويتي علي بن عزران، وقد كان يعمل على اللنج نفسه قبل أن أستلمه من بن عزران النوخذة مصبح بن قبة، وما لا ينسى من تلك السفرات المبكرة أنني اختبرت مواقف إنسانية لا تزال محفورة في أعماق قلبي؛ فقد كان كبار التجار الكويتيين وأصحاب المحامل ينظرون إليّ بعين المحبة والتقدير الشديد، ويقربونني منهم لما لمسوه فيّ من أمانة وجدّ وإخلاص في العمل.

«يا خليفة، الإنسانُ ليس بما يرتديه من قماش»

في ذلك الوقت كانت ملابسي بسيطة ومتواضعة للغاية مقارنة بملابس الكثير من البحارة الآخرين الذين كانوا يفدون إلى البندر بثياب نظيفة ومكوية بعناية؛ لكن التجار الكبار بحكمتهم وخبرتهم في معادن الرجال، التفتوا إليّ ذات يوم وأسمعوني كلمات ظلت بمثابة دستور أهتدي به طوال حياتي،

إذ قالوا لي بحنوّ بالغ: «يا خليفة، الإنسان ليس بما يرتديه من قماش، فكم من امرئ يلبس أجمل الثياب وأفخرها لكنه في ميزان الرجال والشهامة لا يساوي شيئاً» ومن هذا الموقف ندرك أنه مهما تغيّر الزمان وتبدّلت مظاهره، يبقى مقياس الرجال في جوهره واحدًا؛ فالرجل الحق هو من يكدّ ويكافح، ويأخذ عمله بجدية، ويتقن ما يقوم به، ويحفظ كرامته بالعمل لا بالمظهر. فليست الرجولة في الثياب ولا في المظاهر، بل في الصبر، والجد، والأمانة، وحسن السعي.

لم تكن تلك الكلمات مجرد ثناء شفهي، بل ترجموها إلى ثقة عملية؛ فكانوا يعتمدون عليّ في الكثير من أعمالهم، وكان من ثمار هذه الثقة أن أول محمل توليت قيادته وإدارته في حياتي كان من لنجات بن عزران، وبالتحديد الذي كان يسيّره مصبح بن قبة قبل أن ينتقل إلى قيادة مركبٍ أكبر، وقد أعطاه لي ابن عزران لمّا رأى فيّ الأمانة والقدرة على أن أعطيه نصيبه من المدخول المالي كما هو متفق عليه، وكان نظام العمل المتبع بيننا يقوم على قسمة عادلة، وكان كل بحار يشتغل بعدته الخاصة؛ هذا قرقور لي وهذا قرقور لك. ولكي يضمن كل امرئ على اللنج حقّه، كنا نترك علامة مميزة على الأسماك التي يصطادها كل واحد فينا، لأننا نضعها معاً في ثلاجة اللنج المبردة، وهذه الطريقة ستجعل من السهل تمييزها ومعرفة صاحبها عند الوصول إلى السوق لبيعها، وبعد الانتهاء من البيع كانت تُخصم من القيمة الإجمالية مصاريف الديزل والثلج، ثم يحسب صافي الأرباح، ليخرج الثلث خالصاً لصاحب اللنج لقاء مركبه ومعداته، بينما يذهب الثلثان الباقيان للبحارة وسواعد الرجال الذين كابدوا مشقة الصيد.

في تلك المرحلة، كنتُ أنقل لإخوتي النصائح التي كان تجار الكويت الكبار يشاركونني إياها حين أجلس معهم في برزتهم على الشاطئ؛ إذ كانوا يقولون لي عن خبرة وتجربة: «إياك أن تبيع أي أرض تملكها في بلادك، احفظوها بأعينكم، ففي المستقبل سيكون لهذه الأراضي شأن كبير»، وقد كان معهم كل الحق، فالأرض هي الأصل الثابت الذي يصون المرء، والاستثمار طويل الأمد.

المهم أن مسألة إعطائي لنجاً أعمل عليه كانت بمثابة القفزة الكبرى التي نقلتني من مرتبة البحار الأجير إلى مقام الإدارة والمسؤولية المستقلة، وحين استلمت اللنج من الكويت، قررت الانطلاق

به نحو دبي لأبدأ رحلتي الخاصة. ولأن جلب لنج عبر مياه الخليج يحتاج إلى سواعد أثق بها، فقد أخذت معي في هذه السفرة أحمد بن أخي محمد، ونسيبي عبدالله بن عبيد؛ وسافرنا معاً في مركب من دبي حتى وصلنا الكويت، وهناك تسلمنا اللنج وبدأنا على الفور في تجهيزه وفحصه بدقة، وبعدها قمنا بدهانه وتأكدنا من سلامة المحرك، ثم حملنا وقود الديزل، أتذكر أننا اشترينا ثمانيةً وأربعين جالوناً بثماني روبيات فقط، ثم انطلقنا مستعينين بالله، وكان الوقت نهاية شهر رمضان المبارك، فمضينا نشق الموج حتى توقفنا في محطتنا الأولى بدولة قطر لشراء بعض الأغراض واللوازم الضرورية للصيد، وبتنا ليلتنا تلك في اللنج حتى الصباح.

عند شروق الشمس، سرنا على أقدامنا للسلام على نسيبنا محمد بن إبراهيم، وكان متزوجاً من مريم بنت حمد المزروعي، فاستقبلنا بكرم شديد، وأصر أن نفطر معه، ولما أقبل الليل صلينا التراويح معاً في جماعة، ثم ودعناهم واتجهنا إلى اللنج، وفيه تسحرنا وأبحرنا بعد صلاة الفجر، لكن ما إن بدأنا في التحرك ومغادرة البندر، حتى هبّت علينا رياح الشمال، وهي رياح باردة وعنيفة، تجعل الحركة ضرباً من العبث، فلم نستطع التقدم خطوة واحدة، وكان اليوم التالي هو يوم عيد الفطر المبارك، فوجدنا أنفسنا نقضي العيد مغتربين في قطر، فصلينا صلاة العيد مع الأهالي هناك، وأخذنا بعض الحلوى والخبز ثم انطلقنا من بندر قطر باتجاه دبي بعد أن هدأت الريح نسبياً، غير أن البحر لا يؤمن جانبه، ففي منتصف الطريق ثارت رياح الشمال مرة أخرى وهاج الموج، مما اضطرنا للتوقف والاحتماء بجزيرة «داس»، وانتظرنا فيها أربعة أيام كاملة؛ نرقب الأفق ونقتات على ما لدينا من زاد قليل، وبعد انكسار حدة العاصفة، أكملنا طريقنا بصبر وجلد، حتى وصلنا أخيراً إلى دبي باللنج، مستشعرين عظمة النجاة وفرحة الوصول.

هذه الرحلة بالتحديد تعطي لمحةً مبسطة عن المخاطر والأهوال الجسيمة التي كنا نواجهها قديماً قبل دخول وسائل الاتصال الحديثة وأجهزة الرصد الجغرافي؛ فالإبحار في تلك العقود كان صراعاً حقيقياً بين الموت والحياة، حيث كانت السفن الخشبية واللنجات تحت رحمة الأنواء المفاجئة مثل ضربات «الشمال» ورياح «الكوس» الشديدة التي يمكن أن تغرق المركب في دقائق معدودة، دون أن يعلم عنك أهل البر شيئاً. وكان البحار يعتمد فقط على دقة ملاحظة النوخذة وقدرته على القراءة الفطرية للنجوم وحركة الماء والطيور البحرية؛ فإذا أخطأ النوخذة في حساب «الدرور» أو غفل عن علامات التغير الجوي، أصبح الطاقم بأكمله في حكم المفقودين، أضف إلى ذلك مخاطر نفاد الماء العذب والطعام في عرض البحر إذا ما احتجزت العواصف السفينة في الجزر النائية لأسابيع، فضلاً عن الأمراض المباغتة وضربات الشمس الحارقة وغياب أي رعاية طبية، فكان كل بحار يودع أهله وهو يعلم تمام العلم أن البحر قد يكون مرقده الأخير، وقد تخرجت في هذه المدرسة القاسية بعد أن تعلمتُ في بداياتي على يد أخي محمد، ثم ذهبتُ وعملت مع كوكبة من خيرة رجال جميرا، مثل النوخذة سلطان السويدي، والنوخذة مصبح بن قبة وغيرهم من الرجال الذين تعلمتُ منهم الكثير من الأمور عن البحر ومسالكه وكيفية التعامل معه.

محمد بن فاضل المزروعي

ومع مشاق العمل وبلوغي مرحلة الشباب والنضج، التفت إليّ أخي محمد ذات يوم، وبحكم مسؤوليته عني ورعايته لي، اقترح عليّ فكرة الزواج؛ فتزوجت زوجتي الأولى في بداية الستينيات، وعشت معها أياماً طيبة ورزقني الله منها بولدين وبنتين، والولدان هما فاضل وأسميته على اسم أبي، وعبدالله على اسم أخي عبيد. وأتذكر كيف كان ذاك العرس يفيض ببساطة فطرية؛ فلم تكن هناك مظاهر احتفال كبيرة أو تكلف أو بذخ، بل كنا نخطب اليوم وخلال أسبوع واحد نكون قد تزوجنا، وكان المهر في عرسي الأول ألف درهم فقط، ومن مظاهر الاحتفال أن البدو كانوا يأتون يشاركوننا الفرحة بركضهم بركابهم ورزفهم، وكنا نعطيهم حوالي عشرين روبية.

ودارت عجلة الأيام وتبدلت الأحوال وتزوجتُ مجدداً في عام ١٩٧١، ورزقني الله منها بسبعة من الذكور وبنتين؛ الذكور هم: محمد، وقد سميته على اسم أخي محمد، ومطر كذلك على أخي مطر، وخالد وصلاح وقد اختار اسميهما خال العيال عيد بن علي المري تيمناً بالقائد خالد بن الوليد وصلاح الدين، وأحمد، على اسم ابن أخي أحمد بن محمد، وأما راشد فسميتُه تيمناً بالشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم، والأخير سعيد وأسميته على اسم سعيد بن عيد عم والدتي عذيجة بنت بخيت بن عيد وأخو سالم بن عيد، وأتذكر أن المهر في زيجتي الثانية بلغ ستة آلاف درهم، وأقمنا احتفالاً بهيجاً بالرزفة والمالد، وعشيت المنطقة بأكملها.

لكن وراء هذا الزواج قصةً قدرية مدهشة، تعود جذورها إلى طفولتي، فبعد وفاة أبي، تزوجت أمي من محمد بن ضاعن المهيري، وعشتُ معهما في بيته. هناك كانت تعيش ابنة أخته اليتيمة موزة بنت سالم بن مطر النزر الفلاسي، وكانت أكبر مني سناً، وتولتني بالكثير من الرعاية والاهتمام والحنان، وبعد وفاة أمي وتفرق السبل، انتقلتُ للعيش عند أخي محمد، ومرت السنوات وتزوجتُ زوجتي الأولى، لكن لم يُكتب لتلك الزيجة الاستمرار، وعندما جاء وقت زواجي الثاني في عام ١٩٧١، اقترح عليّ الأهل الزواج من بنات إحدى العائلات في ديرة، وبينما كنتُ في

طريقي إليهم، حدث أمرٌ بدا وكأنه ترتيبٌ من الأقدار؛ إذ عدلتُ عن وجهتي بعد أن رشحت لي نساء المنطقة ابنة علي بن عيد، التي هي ابنة موزة الفلاسي، التي كانت ترعاني في طفولتي.

كان هذا الاستقرار العائلي وبناء البيت المستقل عام ١٩٧١ ثمرةَ مرحلةٍ مهمة سبقتها في نهاية الستينيات، حين اخترت أن أبدأ عملي بشكل مستقل عن أخي محمد، لا ابتعاداً عنه، بل رغبةً في الاعتماد على النفس، وتحمل المسؤولية، واكتساب الخبرة المباشرة في الحياة والعمل. وجرى هذا الاستقلال بشكل ودي وأخوي تماماً، إذ ظللتُ أسكن معه في نفس المكان، وبقي احترامي وتقديري وطاعتي له كما هي دون تغيير، وكان في هذا الأمر درس علمني الكثير، فاستقلال الرجل في عمله لبناء ذاته لا يعني أبداً الانفصال عن أهله أو الانتقاص من توقير كبيره، فالبركة تدوم ما دامت أواصر الأسرة متينة.

ومع بداية زمن البناء الحديث وبداية انتقال الأهالي من حياة الخيام والعريش، بادر أخي محمد بشراء كميات كبيرة من الطابوق لغرض تشييد بيوت حديثة، مجتهداً في مواكبة مرحلة التغيير التي تشهدها المنطقة. غير أن الأمور لم تكتمل كما تمنّى، إذ بدأت الحكومة لاحقاً في بناء المساكن الشعبية للمواطنين وتوزيعها عليهم، حينها لم تَعُد هناك حاجة لاستخدام ذلك الطابوق الذي جُمع، وفي نهاية المطاف، اشتراه منه عبد الله بن شعفار الذي كان يعمل في السابق في الخياطة، ثم عمل في المقاولات فيما بعد ووفقه الله، وأبناؤه هم سيف وأحمد وعلي وسالم، وهم رجالٌ كرام، عُرفوا بطيب المعشر، وصلة الناس، وفتح المجالس للضيوف والأهل والجيران، وقد عاش بن فاضل والشعافرة أجيالاً طويلةً على المحبة والأخوة، متكاتفين في السراء والضراء، تجمعهم المودة وحسن الجوار وأصالة المعدن.

ومع بدء حركة تنظيم المنطقة وتوزيع تلك المساكن، عمدتُ إلى زراعة الأرض المتبقية لإثبات تملكها، وزرعت قطعتي بجانب أرض أخي مطر، ثم بنيت حجرة خاصة لي أنا وزوجتي، وأثثتها بكل ما يلزمنا، حيث اشتريت جميع الأغراض والمستلزمات من سوق ديرة ونقلتها إلى جميرا، وكانت الحجرة تقع داخل البيت نفسه الذي يعيش فيه أخي محمد وإخوتي، وظل يجمعنا سقف القرابة والمحبة.

وفي تلك الفترة من مطلع السبعينيات، بدأت عملي المستقل في البحر بكامل قوتي، وكان رأسمالي في البداية مركباً صغيراً من نوع «الشيوعي الصغير» اشتريته من إمارة عجمان بمبلغ من المال كنت قد ادخرته من كدي، وعلى هذا المركب اشتغلتُ بكل همة ونشاط، إذ كنت أخرج به يومياً لاصطياد الأسماك وبيعها في أسواق دبي، وقد عمل معي على ظهر هذا المركب تميم بن خلفان، وراشد بن بخيت، وكان يخرج معي قبلهم في البدايات فاضل ابن أخي مطر، وكنا نعتمد في صيدنا على الطرق التقليدية باستخدام الليخ والقرقور، واتبعت معهم نظاماً عادلاً ومنصفاً في توزيع الأجرة اليومية، فلو بعنا حصاد اليوم من السمك بمئة درهم مثلاً، كنت آخذ نصف المبلغ بصفتي صاحب المركب والنوخذة المسؤول عن الصيانة والمعدات، وهم يأخذون النصف الآخر، يتقاسمونه كأجرة يومية مجزية لقاء تعبهم وسواعدهم. وأذكر هنا أن لراشد بن بخيت وتميم بن خلفان مكانةً خاصة في قلبي؛ فقد جمعتني بهما عشرة البحر، وهي عشرة لا تُنسى؛ إذ عشنا معاً أيام التعب والرزق، وتقاسمنا المواقف في البحر بحلوها ومرّها، وكانا نعم الرجال في الوفاء والعمل والاعتماد. وأنا أحفظ لهما تلك العشرة، وأذكر مواقفهما بكل خير وتقدير.

لكنني لم أكتفِ بالبحر وحده لتأمين مستقبلي، بل كنت أطارد الرزق بكبرياء في البر أيضاً؛ حيث عملتُ في شركة ماكديرموت أنا والكثير من أهالي جميرا، وكانت أوقاتاً صعبةً ومجهدةً ، إذ كنت أذهب للشركة في تمام السادسة صباحاً، وأعود في السادسة مساءً، أتعشى سريعاً ثم أذهب إما للعمل في البحر، أو كسائق تاكسي بسيارتي التي اشتريتها في وقت لاحق بأحد عشر ألف درهم، وأتذكر كنا نركب في ذهابنا اليومي لماكديرموت في سيارة سعيد بن دعفوس أو مطر بوحميد، وندفع مقابلاً يومياً مقابل انتقالاتنا هذي.

السيد مايك ساذرلاند، النائب الأول للرئيس في شركة ماكديرموت مع فريقه، خلال زيارتهم لمنزلي بتاريخ ١٧ يوليو ٢٠٢٦.

هذا الكدّ المتواصل في البر والبحر كان هو الأساس الذي بنيتُ عليه استقراري الأسري، أتذكر أنني في بداياتي عشتُ في خيمة في المكان نفسه الذي يعيش فيه إخوتي، وظل هذا حالنا إلى أن بدأت ملامح الاستقرار تتشكل؛ حيث قامت الحكومة جزاها الله خيراً ببناء بيوت من الطابوق، وحددت مساحة الأرض لكل شخص حسب مكانه الذي يقيم فيه، وبنت له البيت، وقد كان بيتي الجديد في أول أمره متواضعاً للغاية، يتألف من غرفة واحدة، بينما بقيت بقية المساحة داخل سور البيت فضاءً مفتوحاً، ومع مرور الأيام واستعداداً للمستقبل، أصبحت الحاجة ملحة لإضافة غرفة ثانية ومطبخ وحمام؛ فبدأتُ في جمع المال واقتطاعه من قوت يومي وكفاحي، لكن مشاق الحياة في ذلك الوقت كانت كفيلة بأن تجعل جمع المبلغ أمراً في غاية الصعوبة، في تلك المرحلة تلقينا دعماً من ديوان الشيخ، ونجحتُ في بناء الغرفة الإضافية والمطبخ والحمام، وتولى عملية البناء رجل من أهلنا وجيراننا وهو عبيد بن جمعة المنصوري.

ولم أتوقف عند ذلك الحد، بل واصلتُ العمل والكد دون كلل، وكانت عيني على تعمير المكان؛ إذ كانت لدي أرض أخرى أطمح في بنائها، في تلك الأثناء، أراد فاضل بن أخي مطر بيع

قطعة من أرضه الواقعة في المنطقة ذاتها، فنصحته بالاحتفاظ بالأرض، وعندما وجدته مصراً على البيع، ربما لحاجة ماسة لديه، اشتريتها منه بكل ما أملكه من مال نقدي في ذلك الوقت.

وبعد مضي فترة، جاءني عيد بن علي المري (وهو أخو زوجتي)، واقترح عليّ اقتراحاً أن أبني الأرض وأستثمرها، لكن المشكلة كانت أنه لم يكن معي السيولة الكافية للبناء، لكنه شجعني بكلماته الصادقة، ولم يكتفِ بالنصح بل قرن القول بالعمل، وبدأتُ رحلة البناء بما تيسر لي من مال كنتُ قد ادخرته، ووقف معي عيد خطوة بخطوة، وبمشقة بالغة وصبر طويل، نجحتُ في تشييد فلتين على تلك الأرض، وحين اكتمل البناء وأردتُ تأجيرهما، كنتُ كلما وضعتُ لافتة «للإيجار» على الجدار، أعود فأجدها قد نُزعت وافتقدت! وبقيتُ مدة في دهشة واستغراب من هذا الذي يتعمد إزالتها.

وعندما جاء وقت التأجير، أشار عليّ عيد أن أطلب فيهما مبلغاً أكبر، لكني آثرت التيسير وقبلت بالعرض المطروح، وكانت هذه الخطوة هي نقطة تحول؛ بفضل الله، ثم بعوائد هذا الإيجار والمال الذي كنتُ أجمعه من عملي المستمر، تمكنتُ من خوض غمار تجربة بناء جديدة؛ فبنيتُ بيتنا الجديد الواسع المكون من ثماني غرف، وانتقلتُ إليه مع عيالي وأهلي.

لقد علمتني تلك الأيام أن العمل الشريف لا يعيب صاحبه ما دام يحميه من الحاجة، وبفضل الله وبركته، والإصرار والعمل المستمر بدأت تجارتي تتسع وتكبر يوماً بعد يوم؛ فبعد ذلك الشبوعي الصغير، اشتريت محملاً أكبر، ثم ظللت أشتري المراكب واللنجات بانتظام على مدار السنوات حتى اتسعت تجارتي البحرية وصار عندي أسطول مصغر يتكون من عشرة مراكب كاملة، مقسمة بالتساوي بين خمسة طرادات حديثة وخمسة لنجات كبار.

وبقيت أعمل في هذا المجال بقوة حتى عام ٢٠١٠، حين صدر القانون الجديد الذي يُلزم بأن يكون النوخذة القائم على المركب مواطناً بنفسه. وبعد صدور هذا القانون، ومع قلة النواخذة الراغبين في نزول البحر يومياً كما كان الحال سابقاً، وصعوبة إدارة عدد كبير من المراكب بمفردي، قررت بيع مراكبي واحداً تلو الآخر، حتى لم يتبقَ لدي اليوم إلا طراد واحد فقط. وقد

بعت بعض المراكب لأشخاص في البحرين وقطر وأم القيوين، ثم اتجهت بعد ذلك إلى تجارة العقارات من خلال الشراء والبيع والتأجير.

هذا التحول الشخصي في حجم أعمالي ومراكبي كان يسير جنباً إلى جنب مع التحول التاريخي الكاسح الذي غير ملامح جميرا بالكامل؛ فبالرغم من أن التغير الجذري والشامل في الخدمات ودخول الكهرباء والماء الحكومي قد ترسخ وشعرنا به جميعاً في مطلع تسعينيات القرن الماضي، إلا أن الإنصاف التاريخي يقتضي القول إن بذور هذا التغيير قد بدأت قبل ذلك التاريخ بكثير وبشكل متدرج وسريع، فكل سنة كانت تمر علينا كانت جميرا تتغير فيها للأحسن، وتخلع ثوب البداوة والرمال لتكتسي برداء العمران الحديث والرفاهية بفضل الرعاية الكريمة لحكومتنا.

وقد مرت جميرا بمراحل تحول عديدة؛ فمنذ أواخر الستينيات والسبعينيات بدأت ملامح الخيام والعريش بالزوال تدريجياً مع دخول العمران الحديث، ومع مطلع الألفية الثانية تسارع هذا التطور بشكل قوي وسريع، لكن القفزة الهائلة والنهائية التي نقلت جميرا إلى عالمها المعاصر كانت من بعد عام ٢٠١٠؛ حيث اكتملت ملامح المنطقة لتتحول إلى ما هي عليه اليوم من واجهة حضارية عالمية، لتظل تلك الأيام الخوالي مجرد حكايات نرويها للأبناء والأحفاد، ليعرفوا أن هذا الرخاء المعاصر قد نبت أولاً من عرق الرجال وصبرهم المرير في مدرسة البحر والرمال.

لكن قبل أن تشهد منطقتنا هذه الطفرة العمرانية اللافتة والعيش الرغيد، كانت القواعد الصارمة للحياة ترسم ملامح رجولتنا، إذ كانت الحياة في ذلك الوقت لا تعطي الإنسان شيئاً بسهولة، لكن من يعمل ويتعب يجد ثمرة تعبه. لذلك تعلمت ألا أنتظر الفرصة، بل أسعى لها بعملي، وتعلمت أن الرجل لا يُعرف من كلامه، بل من فعله، فالسمعة الطيبة لا تأتي في يوم وليلة، بل تُبنى مع السنين، وهي من أغلى ما يتركه الإنسان بعد رحيله.

دروس من هذا الفصل

- قيمة المبادرة: الفرص لا تأتي دائماً جاهزة، بل تُصنع بالسفر، والتجربة، والقبول بالمشقة في البدايات.
- قيمة حسن التدبير: البناء المتدرج والادخار الواعي أوثق للإنسان من المكاسب السريعة الزائلة.
- قيمة السمعة المهنية: الأمانة والجد قد يفتحان أبواب الثقة قبل المال، ويصنعان مستقبلاً ثابتاً.
- قيمة المثابرة: ما يبدو صغيراً في أوله قد يصبح أساساً لتحول كبير إذا لازمه الصبر والاستمرار.

الفصل الرابع

من سيرة التلاحم والعمل الدؤوب

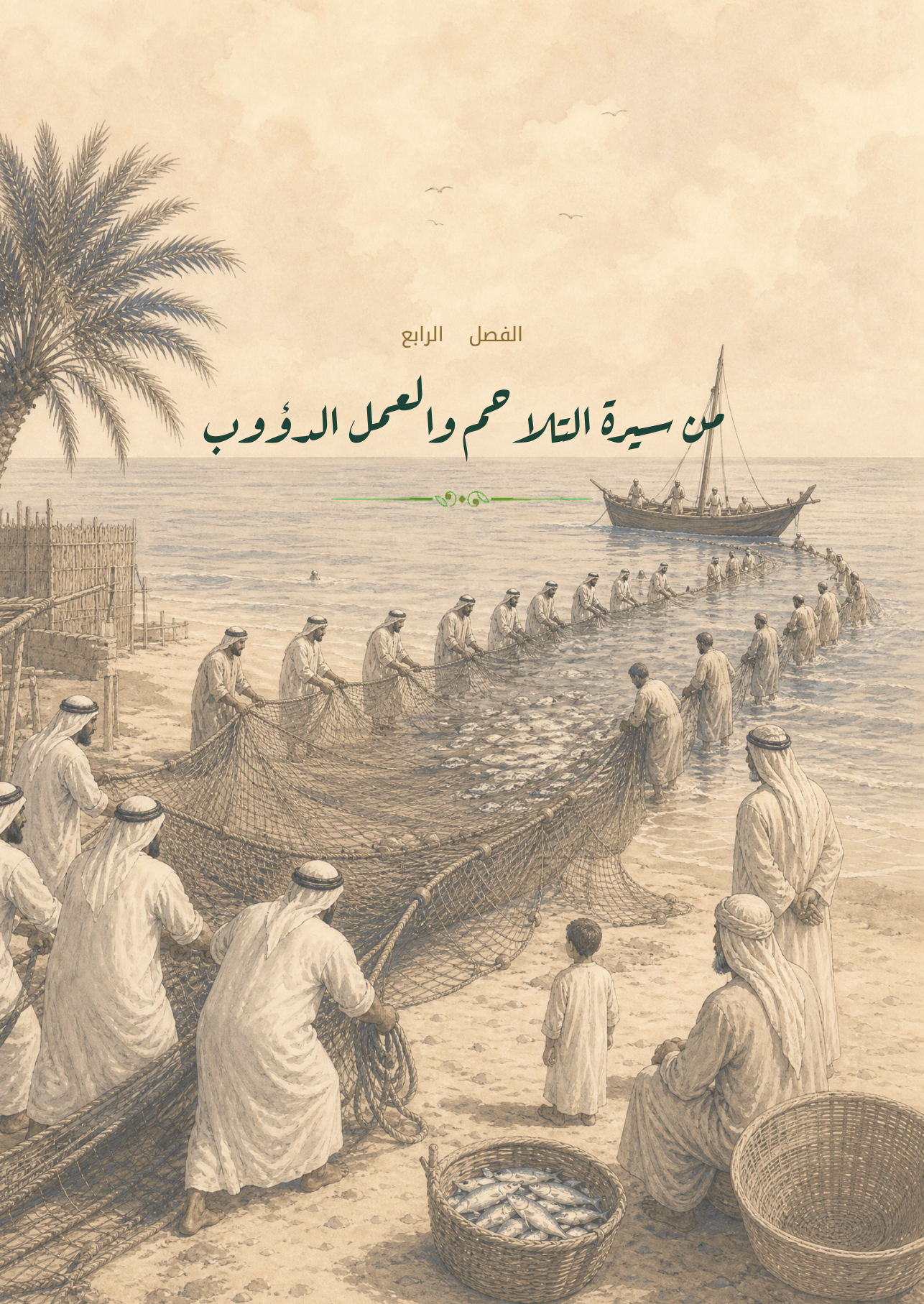

لم تكن جميرا في عقودها الماضية مجرد جغرافيا تضم بيوتاً متجاورة أو خياماً متناثرة على الساحل، بل كانت بمثابة الجسد الواحد الذي إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، حيث بُنيت حياتنا اليومية على ركيزتين أساسيتين، هما الملاحظة الدقيقة والمسؤولية المشتركة؛ فلم يكن المرء في ذلك الزمن يعيش لنفسه أو ينعزل داخل جدرانه، بل كان كل فرد في الفريج بمثابة حارس لأخيه وسند دائم، يتفقد أحواله ويطمئن على عيشه في كل وقت وحين.

ومن أبرز القوانين الاجتماعية غير المكتوبة التي نشأنا عليها في الفريج، هو نظام تفقد الغائب الذي يعكس أسمى قيم التلاحم المجتمعي؛ فإذا غاب أحد الرجال عن جماعة المسجد لصلاتين متتاليتين فقط، كأن يغيب مثلاً عن صلاتي العصر والمغرب، كان ذلك بمثابة إنذار صامت يحرك رجال الفريج تلقائياً دون تنسيق مسبق، فننطلق فوراً نحو بيته، طارقين الباب ومتسائلين عن أحواله وصحته؛ وإن كانت قد ألمّت به ضائقة أو منعه مانع، وقفنا معه وشاطرناه العبء حتى تزول كربته، هذا الاهتمام السريع والمباشر جعل كل شخص في جميرا يشعر بأنه يستند إلى جدار صلب من الرجال لا يتركونه وحيداً في مواجهة نوائب الدهر.

وكانت هذه الرابطة الإنسانية تتغذى يومياً عبر مجالس القهوة العفوية التي تجمع رجال الفريج بانتظام؛ حيث يجتمعون بعد انقضاء أعمالهم اليومية والكدّ الشاق، يتبادلون الأحاديث ويتشاركون دلال القهوة والتمر، ولم تكن تلك التجمعات مجرد تزجية للوقت، بل كانت بمثابة الشريان الذي يتدفق منه أمن الفريج واستقراره، ومكاناً لترتيب أمور الحياة المشتركة، والاطمئنان على أن أحوال الجميع تسير على خير ما يُرام دون منغصات.

وفي مقابل مجالس الرجال، كانت الحركة الاجتماعية للنساء في الفريج تسير بذات التناغم والتكافل، حيث تميز مجتمع النساء بالترابط الوثيق والإنتاجية المعيشية التي تسند بيوت الفريج وتدعم استقرارها، وكانت البيوت مفتوحة دائماً لبعضها البعض، تلتقي فيها النساء يومياً ليتقاسمن أعباء التربية والطهي، وتدبير شؤون المنزل، ومساندة بعضهن البعض في شؤون الحياة اليومية.

هذه اللقاءات النسائية اليومية كانت تتكامل مع مشهد إنتاجي وعملي يقوده الرجال على الجانب الآخر داخل الفريج؛ حيث لم يكن وقت الفراغ يمر هباءً، بل كان الرجال يتجمعون في مساحات مشتركة مخصصة للعمل اليدوي الجماعي؛ فيصنعون القراقير ويحيكون الشباك وأدوات الإنتاج التي تساعدهم في عملية الصيد، مستغلين كل لحظة في تعاون مثمر يعزز روح الاعتماد التبادلي بين أفراد المجتمع، حيث يضع الخبير خبرته في خدمة المبتدئ وتتضافر الجهود لخير الجميع.

وفي هذا السياق أتذكر واحدة من أبرز الحرف التي برع فيها أهالي جميرا، وتعبر بوضوح عن تكاتف أهل الساحل معاً، وهي الصيد بالضغوة، الملحمة الساحلية التي اختصرت مفهوم الجسد الواحد في أبهى صوره الميدانية؛ فالضغوة ليست مجرد طريقة تقليدية لصيد السمك، بل هي طقس اجتماعي إنتاجي يجتمع فيه أهل الساحل على قلب رجل واحد.

وتبدأ حكاية الضغوة من عيون أهالي جميرا الذين يمتلكون فراسة استثنائية في قراءة صفحة الماء وتبدل ألوانها، وبمجرد أن يلمحوا لمعان أسراب السمك مثل العومة أو البرية تقترب من الساحل، يفزعون معاً نحو السيف (الشاطئ)، ويقومون بإنزال الشاحوف أو غيره من المراكب المستخدمة، حاملين شبكة الضغوة الضخمة، ثم يرمونها في نصف دائرة واسعة تحاصر السرب، بينما يظل

طرف الحبل الأول ثابتاً بأيدي الرجال على الشاطئ، وحين يقفل القارب عائداً بالطرف الآخر للحبل، يبدأ المشهد الاجتماعي الأكثر مهابة؛ إذ ينقسم رجال الفريج إلى مجموعتين متوازيتين على الرمل، ويبدأون سحب الحبال بإيقاع منتظم تتضافر فيه سواعد الشيوخ مع حماس الشباب، وتعلو الأصوات بالشيلات البحرية الحماسية.

لكن القيمة الأخلاقية الأسمى للضغوة تكمن في الآلية التي تحكم توزيع الصيد؛ فلم يكن أحد يغادر الشاطئ خالي الوفاض؛ إذ كان الصيد يُقسم بموجب نظام دقيق يضمن حق أصحاب الحلال والصيادين، ولكن أبهى تجليات التكافل تظهر في حصة الفريج العفوية؛ إذ كان الأطفال، والنساء، والأرامل، وحتى عابرو السبيل يقصدون الشاطئ، فيبادر الصيادون بإعطائهم من خير الصيد دون مقابل وتحت مسمى البركة والصدقة، فالمعوز في جميرا كان يعلم يقيناً أن عياله لن يبيتوا دون عشاء ما دام البحر يجود وخلفه رجال يصونون عهد الجوار ويؤمنون بأن البركة لا تحل في الرزق إلا إذا تقاسمه الفريج بقلوب صافية.

ومن صخب الشاطئ ومواسم الصيد، ننتقل إلى حرفة ثانية كان يقوم عليها أهالي الفريج على الأرض، وهي حرفة الزفانة، ونقصد بها صناعة الدعون من سعف النخيل. هذه الصنعة كانت تتكامل فيها خبرات أهل المنطقة، وخصوصاً في فترة القيظ حين ينتقل الناس للسكن بجوار نخلهم. وتبدأ رحلتنا في الزفانة من جمع السعف وفرزه وتنظيفه بحسب شكله وجودته قبل بدء المهمة بفترة، وفي نفس الوقت نجهز الحبال المصنوعة من ليف النخيل، والتي كنا نفتلها بأيدينا ثم ننقعها في الماء لتصبح قوية ومرنة ولا تنقطع منا وقت الشد الشديد.

وفي هذه الحرفة بالذات، تظهر الفزعة والتلاحم بين النّاس في أحسن صورة؛ فحين يريد المزارع أو صاحب البيت أن يصنع دعونه، ما عليه إلا أن يمر على جيرانه ومعارفه ويطلب منهم المساعدة بعد صلاة الفجر. ومن المواقف الجميلة التي كنا نعيشها دائماً، أن صاحب الحاجة إذا طلب ستة أشخاص مثلاً، فإنه يفاجأ بحضور ثلاثة عشر رجلاً أو أكثر مع أول طلوع الضوء، كلهم جاءوا للمساعدة بشهامة وفزعة ودون أن ينتظروا أي مقابل. وهناك يتوزع الرجال إلى مجموعات، لأن

نسج الدعن الواحد يحتاج من خمسة إلى ستة أشخاص بحسب حجم السعف المأخوذ من النخلة؛ فإذا كانت النخلة صغيرة يسمون دعنها أبو خمسة، وإذا كانت كبيرة يسمونه أبو ستة.

وتبدأ طريقة العمل بترتيب الخوص وربطه بشكل متبادل؛ خوصة من اليمين وأخرى من اليسار، ويستمر هذا النسج حتى يكتمل الدعن الأول، ثم يُنسج الذي يليه فوقه مباشرة.

وكان الأهالي يصنعون نوعين من هذا النسيج بحسب الحاجة؛ الأول هو النسيج المتقاطع ويُستخدم لعمل المسطاح لتجفيف الرطب، والثاني هو النسيج المتناسق الذي يسير في اتجاه واحد ويُستخدم لأسقف المنازل والخيام لأنه يمنع تسرّب مياه الأمطار ويجعلها تنساب بسرعة. وتدخل هذه الدعون في استخدامات يومية كثيرة كصناعة أبواب العريش، والحصر، والمنامة، وغيرها من ضرورات السكن، حيث ترتبط مواسم هذه الحرفة بفصل الصيف وتمتد حتى أول الشتاء، وتكثر خصوصاً في أوقات تقليم النخل التي نُسميها محلياً التكريب.

ولا تنفصل هذه الحرفة عن مراسمها الاجتماعية الدامجة؛ إذ يقوم صاحب العمل بتقديم وجبة الإفطار لجيرانه من الفزّاعة فور وصولهم، ويكون الإفطار بسيطاً ومباركاً يتكون من اللبن والتمر والخبز، وعند انتهاء العمل وانقضاء المهمة، يتجمع الرجال كافة لتناول وجبة الغداء عنده كنوع من

التقدير والاحتفاء الجماعي بإنجاز العمل، مما يحول الجهد البدني الشاق إلى مناسبة اجتماعية تزيد من ترابط القلوب وتآلف النفوس وتشد من أزر الجماعة.

إن القيمة الحقيقية للتعاون في هذا المجتمع القديم كانت تتجلى بكل وضوح عندما تتحول الأقوال والنوايا إلى أفعال وممارسات ميدانية في مواجهة متطلبات الحياة اليومية الشاقة؛ فقد عاش الأولون حياتهم على مبدأ الفزعة؛ وهو بذل الجهد البدني والمالي دون مقابل، تلبية لحاجة الأخ أو الجار، وإيماناً بأن كفاح المعيشة لا يمكن لفرد بمفرده أن يقوى عليه دون مساندة جماعته وعشيرته التي تحيط به وتشد عضده.

«فلم يكن الواحدُ منا يُترك أبداً ليواجه مشاقّ الحياة بمفرده، بل كان الفريجُ كلّه يقفُ معه»

ويظهر هذا التكاتف أيضاً في موقف طيب كان يتكرر دائماً وعاشه معظم أبناء جميرا قديماً؛ فإذا قرر أحد أهالي الفريج الانتقال من بيت إلى بيت أو من منطقة إلى أخرى، يفزع له رجال الفريج تلقائياً بمجرد سماعهم بالخبر. وفي الصباح الباكر، يجتمعون عند بيته ويبدأون العمل معاً بروح واحدة، ولا يغادر أحد منهم إلا بعد أن يطمئنوا تماماً على أن جارهم قد استقر في مكانه الجديد، وأعادوا بناء عريشه وسكنه، وهذا الموقف يختصر حالنا في ذلك الزمان؛ فلم يكن الواحد منا يُترك أبداً ليواجه مشاق الحياة أو تعب الانتقال بمفرده، بل كان الفريج كله يقف معه ويسانده حتى تنتهي مهمته في ذلك الزمن البسيط والصلب في آنٍ واحد، لم تكن معايير تقييم الرجال وموازين وجاهتهم الاجتماعية تستند إلى المظاهر الجوفاء، أو كثرة المال النقدي المخزن، أو نوع الثياب، بل كانت السمعة الطيبة للرجل تُبنى من مادتين أساسيتين لا ثالث لهما: الكدّ الشخصي المستمر في طلب الرزق الشريف، وصلاح الأبناء والذُرية، وبذلهم للخير في مجتمعهم.

فالرجل قديماً كان يُعرف ويرفع اسم عائلته ومقامه بين الناس بما يقدمه من جهد وعرق، وبما يحققه أبناؤه من مواقف مشهودة في الفزعة، والسنع، والأمانة، والعمل النافع الذي يخدم الوطن ككل.

لقد كان الرجل الذي يشقى ويكدّ ويعمل طوال يومه، هو الذي ينال التقدير الأكبر والاحترام الأعمق في المجالس، لأن المجتمع كان يقدس الحركة والإنتاج والاعتماد على النفس، وهناك عائلات كبرى وشخصيات بارزة حفرت أسماءها بحروف من نور في سجل السمعة والمكانة الاجتماعية بناءً على هذه الثوابت والقيم؛ ومن أبرز هؤلاء قوم بن ثالث، والجد ضاحي، جد ضاحي بن خلفان، و خلفان بن خرباش، وبن سهيل، والعيالة، والشعافرة، والدراوشة، وبوعميم، والمحاربة، و الطواير، و بالليوحه، و بن غليطه، و المرر، و بالعبيدة، و الهوامل وغيرهم من العوائل التي لا يسعني ذكرها جميعاً، وكل عائلات جميرا لم تكتسب شهرتها وحظوتها الاجتماعية من فراغ، بل من تاريخ طويل من الكفاح، والعمل الشريف، والحرص الدائم على صون قيم المجتمع، ومساندة المحتاج، وتقديم أبناء صالحين يحملون الأمانة من بعدهم بكل كفاءة واقتدار ويسهمون في نهضة بلادهم ومجتمعهم.

دروس من هذا الفصل

- قيمة الفزعة: المجتمع القوي لا ينتظر الاستغاثة طويلاً، بل يتحرك بدافع الرحمة والواجب.
- قيمة الحضور الاجتماعي: السؤال عن الناس، ومجالستهم، والوقوف معهم، يصنع شبكة أمان أخلاقية لا تُقدّر بثمن.
- قيمة المشاركة: حين يتوزع الجهد بين الناس يخف التعب، وتبقى المودة، ويشعر الجميع أن الرزق مشترك البركة.
- قيمة السمعة الحسنة: المكانة الحقيقية لا تأتي من المظهر، بل من خدمة الناس والقيام بحقوقهم.

الفصل الخامس

حصاد العمر

على مرّ السنين الطوال التي قضيتها في العمل والكدّ في جميرا، تيقنتُ أن القيمة الحقيقية للإنسان لا تُقاس بما يملكه في جيبه من مال، بل بما يتركه في قلوب الناس من أثر، وما يحمله في صدره من قيم وعزة نفس.

إن حصاد هذه العقود الممتدة والسنوات العريضة التي مرت بكلّ تقلباتها، لم يكن مجرد تجارة نمت أو مراكب رصّت على الساحل، بل هو حصادُ دروسٍ ومواعظ عُجنتْ بالعرق الشديد والشقاء الذي صقل العقل وأنضج البصيرة، لذلك أريد للجيل الجديد اليوم، الذي تفتحت عيونه على سبل الراحة، وتيسرت أمامه سبل العيش ونُعِم بالوفرة، أن يقف عند هذه التجربة طويلاً، وألا يمرّ عليها مرور العابرين، بل يتأملها ملياً؛ فالحياة في جوهرها ليست دائماً بحراً هادئاً ساكناً، والزمن طبيعته التبدلُ والتحول، ومَنْ لا يتسلح بأصول الرجال وثوابت الأخلاق؛ تذروه الرياح العاتية، وتتقاذفه الأمواج مع أول اختبار حقيقي يواجهه في معترك الحياة.

وأول ما أودّ أن أنقله للأبناء وأغرسه في نفوسهم غرس الأوتاد، هو فهم المعنى العميق والجوهري لمفهوم الاستقلال الحقيقي في العمل والحياة الشخصية؛ ففي مرحلة شبابي المبكر، عندما اتخذت قراري الحاسم والمنعطف الأكبر بالانفصال العملي عن أخي محمد، لم يكن هذا القرار نابعاً من جحود أو رغبة في التمرد أو قطعاً لرحم، بل كان نضجاً مبكراً ورغبة صادقة في الاعتماد الكامل على النفس ليشتد عودي في السوق، وأتحمل مسؤولية قراراتي وتجارتي دون أن أكون عبئاً على أحد، والنصيحة الذهبية التي أضعها بين أيديكم هنا هي أنه يجب عليكم بناء عملكم المستقل دون أن تفكروا في التمرد على طاعة الكبار أو عدم احترام مقامهم؛ فالاستقلال يمنحك الهيبة والقوة في سوق العمل والحياة، ولكن برضا الأهل ودعواتهم وبركتهم يفتح الله لك مغاليق الأبواب ويسوق لك التوفيق، والرجولة الحقة هي أن تكون سنداً وذخراً لأهلك وناسك لا عبئاً ثقيلاً ينتظر العون من الآخرين.

ولم تقتصر مدرستي الأولى في هذه الحياة على أخي الأكبر محمد بن فاضل فحسب، بل كان لإخوتي جميعاً أثر في تكويني وتعليمي؛ وأذكر منهم في هذا السياق أخي عبيد، وهو ثاني إخوتي وكان يُكنى منذ صغره «أبو حمدة» وتحقق له ذلك حين تزوج ورزقه الله بثلاث بنات، سمّى الكبرى حمدة.

وكان الفارق في العمر بيني وبين أخي عبيد كبيراً؛ إذ يقارب الأربعين سنة، وأتذكر أنه كان يأخذني معه دائماً في الكثير من مشاويره، وهي تفصيلة أرويها للأبناء ليعرفوا كيف كان الكبار يحتضنون الصغار ويسكبون فيهم خبرتهم الحياتية؛ فقد تعلمتُ من مرافقته أشياء كثيرة أفادتني في حياتي، إذ كان عبيد رجلاً اجتماعياً بطبعه، يمر كل صباح على أهل الفريج ليسلم عليهم ويتفقد أحوالهم، كما كان شاعراً، وكان من عفويته، إذا رأى أحداً متعباً سارع بتلاوة آيات من القرآن عليه، وكان الناس من طيبتهم يعتقدون أن قراءته هي التي تسببت في الشفاء.

وكان عبيد يعمل معنا في البحر، ومن الذكريات الطريفة التي أتذكرها أنني في وقت الظهيرة عندما ينحسر البحر، كنتُ أنادي على إخوتي وأطلب منهم أن يساعدوني في سحب المركب إلى البر مسافة أبعد؛ كي لا يسحبه البحر للداخل، وكان عبيد دائماً ما يتندرُ ويقول مازحاً: "هذا خليفة ما ايينا إلا وقت الغداء يبانا نسحب المركب"، وفي هذه الدعابة التلقائية درسٌ عشته بنفسي وأمرره لجيل اليوم؛ وهو أن العمل الجاد والمثابرة لا يتعارضان مع لين الجانب وبشاشة الوجه، فالنفوس الطيبة الراضية هي التي تذلل الصعاب وتجلب البركة في الرزق.

وفي عالم التجارة وإدارة الأعمال التي تتبدل أدواتها وتتسارع وتيرتها اليوم بشكل غير مسبوق، أقول للشباب بكل أمانة إن وفرة المال ليست هي المعيار الأول ولا الأوحد للنجاح المستدام، بل هناك ما هو أبقى وأثمن وهو رأسمال السواعد، وكيفية التعامل الأخلاقي والإنساني مع من يعملون معك ويساندون مشروعك؛ فعندما بدأت خطواتي الأولى بمركب صغير متواضع اشتريته من عجمان، لم أدر عملي بعقلية صاحب المال المستبد الذي يرى الناس أجراء عنده، بل أدرته بعقلية الشريك الحريص على مصلحة الجميع، وكنا نعتمد نظام «النصف» بالعدالة الصارمة والأمانة المطلقة، حيث تذهب خمسون روبية للمركب ومستلزماته وصيانته، وخمسون روبية تُوزع على البحارة والسعاة

بالتساوي دون بخس أو تأخير، هذه العدالة الميدانية والإنصاف الصادق هما اللذان صنعا لي اسماً موثوقاً في السوق، لذا أقول إذا أردت لمشروعك الناشئ أو عملك التجاري مهما كان نوعه أن يكبر ويضرب بجذوره في الأرض ويستمر عبر الأيام، فاطعم من يعرق معك أو يواجه ضغوط العمل لأجلك قبل أن تطعم نفسك، واجعل من حولك شركاء حقيقيين في النجاح والربح، لتجدهم درعاً حصيناً لك في أوقات الأزمات والشدائد التي لا ينجو منها أي تاجر.

أتذكر في فترة التسعينيات زارنا شاب سعودي من أهل البادية يدعى إبراهيم القحطاني، كان يبحث عن عمل يسد به حاجته بعد أن عمل لدى أحدهم لثلاثة أشهر دون أن يتقاضى أجراً فقرر تركه. وفي حديثي معه سألته عن عمله، فأخبرني بأنه بدوي ولا فكرة لديه عن البحر، أكرمته وأخذته لتناول طعام الغداء ثم طمأنته بأنني سأضمه إلى العمال الذين يعملون معي في البحر، عندها تعجب الشاب وسألني مستغرباً: «كيف أعمل في البحر وأنا لا أعرف عنه شيئاً؟»، فقلت له ببساطة إن عمله سيكون الجلوس في الكابينة فقط؛ إذ كان القانون آنذاك يشترط أن يكون النوخذة خليجياً، ولا يسمح بحركة الطراد أو اللنج دون وجوده.

حين ذهبنا إلى اللنج أول مرة، كان يجهل حتى طريقة الصعود إليه، فأخذت بيده وعرفته على الكابينة وأجزاء اللنج بالكامل، ومع مرور الأيام بدأ العمال الهنود يعلمونه كل ما يخص البحر وشؤونه، وبدأ هو بدوره يأنس للمهنة وصعوباتها، فتعلم منهم وتمرس في العمل حتى صار راعي بحر، وظل يعمل معي على هذه الحال عشر سنوات، زار خلالها أهله في أبها بالسعودية بعد مضي نحو ست سنوات من العمل، فقضى هناك شهرين ثم عاد. وحينها نصحته بالزواج والاستقرار، فذهب وتزوج ثم رجع إليّ لمتابعة عمله، وفي نهاية المطاف، عندما أراد العودة والاستقرار نهائياً في بلاده، أكرمته وأعطيته فوق حقه وزيادة، جزاء أمانته وصبره، وفي هذه القصة درسٌ تتوارثه الأجيال؛ فالإنسان ابن بيئته الجديدة إن ملك العزيمة، والرزق يطلب صاحبه بالصبر والمحاولة، وصنائع المعروف لا تضيع بين الأوفياء.

«الرزقُ المباركُ والمستدامُ هو الذي يُبنى على مهل، لبنةً فوق لبنة، وحجراً فوق حجر»

أما النصيحة الجوهرية والملحة التي أراها بمثابة حبل نجاة حقيقي للجيل الحديث في هذا العصر الرقمي المتسارع والمربك، فهي الحذر التام واليقظة من السقوط في فخ العجلة والركض خلف الرزق السريع؛ فالكثير من شباب اليوم يستعجلون قطف الثمار قبل نضجها، ويريدون بلوغ قمة النجاح المالي والوجاهة الاجتماعية بين عشية وضحاها دون المرور بمرحلة التأسيس الصلبة والصبر على مشاق العمل.

إن المعرفة الحقيقية والتمكن الصارم من الصنعة والتجارة لا يأتيان عبر الطرق المختصرة أو الحلول الجاهزة، بل يورثان بالصبر الجميل والملازمة المستمرة وتحمل شقاء البدايات وقسوتها، تماماً كما كنا نجلس نحن لسنوات طوال نتعلم أصول البيع والشراء وفهم تقلبات الأسواق وحسابات الخسارة قبل الربح، ويجب عليكم ألا تغرنكم المظاهر الخاطفة التي تروج لنجاحات سهلة بلا جهد أو تعب، واعلموا يقيناً أن الرزق المبارك والمستدام هو الذي يُبنى على مهل، لبنة فوق لبنة، وحجراً فوق حجر، وأن الخبرة التراكمية الحية التي تكتسبونها أثناء مواجهة الصعاب وتجاوز العثرات في بداياتكم هي الدرع الحقيقي والوحيد الذي يحمي مستقبلك ويقيك السقوط الكبير عندما تتسع أعمالك وتكبر مسؤولياتك في الحياة.

وفي مسيرة الكدّ وبناء الذات، عاصرتُ في سنوات شبابي ظاهرةً كنت أقف عندها طويلاً متعجباً، وأعتقد أنها موجودة حتى يومنا هذا، إذ كان الكثير من الشبان والرجال ممن تيسرت أحوالهم المادية يجمعون ما تجود به تجارتهم من مبالغ، ثم يسارعون بالسفر بها إلى الهند أو وجهات أخرى، وهناك ينفقون تلك الأموال بكثرة على شراء مقتنيات وبضائع ترفيهية لم يكونوا في حاجة حقيقية لها، ثم يعودون وبعد فترة أراهم وبمجرد توفر المال في أيديهم يعيدون الكرة مجدداً، وبلغ الأمر ببعضهم إلى بيع أراضيهم ليصرفوا أثمانها على تلك الملذات العابرة والأسفار والمظاهر، وحين

كنت أنصحهم بالتريث وحفظ النعمة، كانوا يتندرون عليّ ويدّعون أنني لا أعرف كيف أستمتع بالمال الذي أجنيه من تعبي، ودارت الأيام وتوالت السنون، لتكشف عاقبة هذا الطيش؛ فغالبية هؤلاء الذين استعجلوا بهرج الحياة عانوا في أواخر أيامهم من ضيق ذات اليد والعوز، واضطروا للعيش في عناء بعد أن كانت أيديهم مبسوطة، بينما وفقني الله بفضله وحسن تدبيره إلى تأمين مستقبل أبنائي وبناء أساس مستقر لهم، وفي الوقت نفسه، عشت حياة طيبة وجميلة استمتعت بكل فصولها دون حاجة لتلك المظاهر المكلفة.

والدرس الجوهري الذي أضعه اليوم أمانة بين أيدي الأجيال الحالية والقادمة، هو أن المتعة الحقيقية في الحياة لا ترتبط بحجم الاستهلاك، أو الركض خلف الملذات، أو التفاخر بشراء ما لا حاجة إليه من المقتنيات التي تذهب بهجتها مع الوقت؛ بل إن المتعة الحقة هي الطمأنينة التي تسكن النفس حين يعلم المرء أنه مستور الحال، لا يطلب حاجة من أحد، وأن يرى ثمرة كفاحه وعرقه تتجسد في استقرار بيته وصلاح ذريته ونفع مجتمعه، لذلك أنصح أبنائي أن يحذروا الانسياق خلف المظاهر الخاطفة التي تروج للإنفاق غير المحسوب باسم الاستمتاع بالحياة، واعلموا أن حفظ النعمة في الرخاء هو الذي يصون كرامة الإنسان في الشدة، وأن الحكمة في إدارة رزق اليوم هي الضمان الأكيد لأمان الغد، فالمال عصب الحياة؛ إن حفظته حفظك، وإن بددته في غير موضعه تركك وحيداً في مواجهة تقلبات الزمن.

ومن الأمور التي التزمتُ بها طوال حياتي أنني وضعتُ لنفسي مبدأً صارماً لا أحيد عنه؛ وهو ألّا أبني بيتاً، ولا أشتري عقاراً، ولا أقضي حاجة من حاجات الدنيا بالدَّيْن أبداً، بل كنتُ إذا أردتُ أمراً، أقبلتُ على العمل بالصبر والجلد، وأخذتُ أجمع (الكاش) اللازم له لبنةً فوق لبنة، حتى إذا اكتملت القيمة بين يديّ، حققتُ غايتي بعزة نفسٍ واستقلالية تامة، دون أن يكون لأحدٍ عليّ فضلٌ أو منّة. ودائماً ما كنتُ أردد للأبناء حكمةً أراها ميزان التاجر الحذق والرجل البصير في حياته: «من يخرج ولم يحسب.. أفلس ولم يدر»؛ فالحساب والدراية وقراءة العواقب هي الأمان الحقيقي الذي يقيك عواقب التخبط وضيق ذات اليد.

كذلك أرى أنه من أوجه حفظ هذه النعمة وصرف الرزق في مواضعه المباركة، أتذكر تلك المحطة الإيمانية التي عشتها وعلمتني معاني التلاحم والوفاء؛ وبالتحديد حين شددنا الرحال لأداء فريضة الحج في عام ١٩٨٥م لأول مرة، وكنا وفداً كبيراً من جميرا، حيث خرجنا قرابة الستين شخصاً تجمعنا نية الطاعة، وكان معي أخي مطر بن فاضل، ورفقاء طيبون من الأهل والجماعة، منهم: خلفان بن ضاحي، وأحمد بن طارش، ومجموعة من قوم بن جافلة، ومن قوم العايل، والصغيرة بنت حمدان، وقوم معضد بن راشد، ونسيبي عبدالله بن عبيد وكثيرون غيرهم. وبلغت التكلفة في ذلك الوقت أربعة آلاف درهم عن الفرد الواحد، وسافرنا بكل يسر وسهولة بالطائرة، وقضينا في هذه الرحلة شهراً كاملاً؛ خمسة عشر يوماً في المدينة المنورة، وخمسة عشر يوماً في مكة المكرمة.

وفي هذه السفرة درسٌ بليغ في رد الجميل؛ فقد حرصتُ على أن تأتي معي للحج موزة الفلاسي - المرأة الفاضلة التي ربتني في طفولتي وشاءت المقادير لاحقاً أن أتزوج ابنتها- إذ كانت طوال عمرها تحلم بأداء فريضة الحج، وكانت ترتيبات الحج قد اكتملت، لكنني سعيت بجهدي وأنهيت الإجراءات سريعاً، وكان من فضل الله عليّ أن أكون سبباً في تحقيق أمنيتها، براً بها وتقديراً لفضلها العظيم عليّ.

وكانت رحلتنا مع حملة المقاول المعروف ابن دعلوي، وهو رجل يسكن في الخبر ومن أوائل مقاولي الحملات الذين وثق بهم أهالي الإمارات لتنظيم رحلات الحج والعمرة منذ عام ١٩٦٣م، فكانت إدارته متميزة وخبرته الطويلة هونت علينا عناء المناسك، وجعلت الرحلة ميسرة ومباركة جمعت القلوب في أجواء إيمانية لا تُنسى.

ومن حصاد العمر عرفتُ عميقاً أن الهيبة الحقيقية للمرء، ووقاره في مجتمعه وبين أقرانه لا تُصنع أبداً بتباهي المظاهر الجوفاء، أو استعراض كثرة المال، بل هي قيمة روحية وأخلاقية تُبنى في أدق تفاصيل الأمانة الأخلاقية والالتزام المطلق بالكلمة؛ فقد عشنا زمناً طويلاً كانت فيه الكلمة الشفهية من فم الرجل بمثابة صك شرعي مكتوب وموثق لا يُرد ولا يُكسر ولو على قطع الرقاب.

هذه الأمانة الصارمة والترفع عن الخديعة والمواربة هما اللذان جعلا أسماء الرجال والعائلات باقية وحية في مجالس الثناء والتقدير يتوارثها الناس جيلاً بعد جيل، لأن قيمتهم الاجتماعية ووجاهتهم لم تنبع من بريق أموالهم، بل من صدق معاملاتهم والوفاء التام بعهودهم، والترفع الشديد عن صغائر الأمور والدنايا التي قد تخدش مروءة الإنسان أو تقلل من مقامه ووقاره بين جماعته وفريجه، فخسارة المال تعوضها السواعد، أما خسارة المرء لكلمته وسقوط ذمته أمام الناس، فهما الخسارة الأبدية التي لا تعوضها كل ثروات الأرض.

هذا التحول الكبير الذي عشته في جميرا، وكيف تغيرت من منطقة هادئة وبسيطة كلها رمل وبحر لتصبح مكاناً عالمياً يقصده الناس من كل الدنيا، يجعلني أتفكر كثيراً في تصاريف الزمان وتبدل الأحوال. قديماً، كنا نظن أن حدود الدنيا هي فرجاننا الصغيرة، وأن الرزق لا يأتي إلا بالتعب والشقاء بين البر والبحر، ولم يكن يخطر على بال أحد منا أن هذه السواحل الساكنة ستصبح يوماً ملتقى لثقافات العالم بأسره.

والدرس الأكبر الذي خرجت به من هذا كله، هو أن دوام الحال من المحال، وأن الدنيا تتغير ولا تبقى على حالها، والحكمة ليست في الوقوف ضد التطور أو البكاء على الماضي، بل في أن نمشي مع العصر دون أن نضيع هويتنا وعاداتنا، لقد أصبحت جميرا اليوم واجهة حديثة، لكنها في قلوبنا وعقولنا ما زالت تحمل نفس الجذور والصورة القديمة الطيبة.

أخيراً، إن كان لي من وصية أتركها لكم بعد هذه السنين الطويلة، فهي:

- احمدوا الله دائماً على ما أنعم به عليكم، واعرفوا قيمة النعمة التي تعيشون فيها اليوم. نحن عشنا زمناً صعباً، وعرفنا جيداً أن الإنسان لا يقوى إلا بالصبر والعمل، وأن القيم والسمعة الطيبة أغلى من المال والمنصب.
- تمسكوا بدينكم، وحافظوا على صلاتكم، وأحسنوا إلى الناس، وصلوا أرحامكم، ولا تفرطوا في سمعتكم؛ فالمال يذهب ويعود، أما السمعة الطيبة فهي رأس مال الإنسان، وهي ما يبقى لأبنائه من بعده.

- عليكم أن تتعلموا وتواكبوا زمانكم، فالعلم والتقنية والمعرفة ضرورات في هذا العصر، لكن لا تتركوا ما ورثناه من آبائنا وأجدادنا من السنع، وحسن الخلق، وصلة الرحم، والترابط بين الأهل والناس. تطوروا ونافسوا في العلم والعمل، لكن لا تجعلوا هذا التطور يبعدكم عن أهلكم ومجتمعكم وجذوركم.

- تذكروا أن الإنسان مهما كبر علمه أو منصبه أو تجارته، يبقى محتاجاً إلى أهله وناسه. فلا بركة في نجاح يجعل صاحبه بعيداً عن رحمه ومجتمعه، ولا خير في مكانة تُبنى على حساب المودة والرحمة.

- اجعلوا مجالسكم عامرة بالخير، يسأل فيها الناس عن بعضهم، ويُحترم فيها الكبير، ويُوجَّه فيها الصغير، ويُكرم فيها الضيف، ويُعان فيها المحتاج. وكونوا دائماً أهل فزعة ومبادرة، في الشدة والرخاء، من غير انتظار شكر أو مدح.

- واعلموا أن الدنيا تتغير بسرعة، والإنسان لا بد أن يواكب زمانه بعقله، لكن لا يغير مبادئه وقيمه. افتحوا عقولكم لكل علم نافع، واجعلوا قلوبكم ثابتة على الأخلاق التي قام عليها بيتنا ومجتمعنا وبلادنا.

- وفي النهاية، أثر الإنسان لا يُقاس بما جمعه من مال، ولا بما وصل إليه من منصب، بل بما تركه في قلوب الناس من خير، وبما قدمه لأهله ووطنه ومجتمعه. فإن ترك الإنسان بعده ذكراً طيباً وأثراً حسناً، فهذا من أعظم ما يتركه في الدنيا، أسأل الله أن يحفظكم، ويبارك في أعماركم وأعمالكم، ويجعلكم من أهل الخير والصلاح، وأن يديم على وطننا نعمة الأمن والرخاء، ويوفقكم لتكونوا خير امتداد لمن سبقكم، وخير قدوة لمن يأتي بعدكم.

دروس من هذا الفصل

- قيمة الأمانة: الكلمة الصادقة والعدل في المعاملة رأسمال يبقى حين تتغير الظروف والأسواق.
- قيمة الصبر المالي: الادخار، والحساب، وترك الديون ما أمكن، أبواب إلى الاستقرار لا إلى الحرمان.
- قيمة رد الجميل: الوفاء لمن أحسن إلينا يربي النفس، ويجعل الرزق أكرم أثراً وأحسن ثمرة.
- قيمة الثبات على الهوية: مواكبة العصر مطلوبة، لكن مع حفظ الدين والأخلاق والجذور التي منحت الحياة معناها.

خاتمة

- كلمة أخيرة عن والدي -

حالفني التوفيق أن طفولتي تزامنت مع المرحلة التي آثر فيها والدي، خليفة بن فاضل المزروعي، الاستقرارَ فترةً أطول في البلاد، واضعاً حداً لسنواتٍ من الكفاح الذي عاشه جيل الآباء والأجداد في الإمارات. فقبل ذلك، كانت حياته سلسلة مستمرة من رحلات البحر الطويلة والعمل الشاق المتواصل في دول الخليج المجاورة طوال أشهر السنة، حيث لم يكن يعود إلى الديار إلا في مواسم الشتاء الوجيزة، وبفضل هذا الاستقرار المبارك، أتيح لي أن أنشأ في كنف والدي، قريباً منه، أرقب ملامح كفاحه، وأقف على تجربته الثرية عن كثب.

من الذكريات الحية التي لا تغيب عن بالي، مرافقتي الدائمة له إلى ميناء جميرا الثالثة، ليتفقد أصحابه وحلاله. وكان يجلسني بجواره، ولكي يغرس فيّ رغبة الملازمة، كان يتيح لي تعشيق ناقل الحركة في سيارته النيسان «الغيار العادي»، الأمر الذي كان يملؤني بالاعتزاز وأنا أشعر كأن المقود بين يدي. وفي بعض الأوقات، كنتُ ألحّ عليه في طلب «تفحيط» خفيف، فكان يجاري طفولتي بلين جانبٍ، ويصدر صوتاً بسيطاً من الإطارات ليدخل البهجة إلى نفسي. هذه التربية الذكية بالاحتواء وإشباع الفضول، كانت سبباً في أنني كبرتُ زاهداً في هواية السيارات والتفحيط؛

لكنها نجحت في تحقيق غايتها الكبرى آنذاك، فلولا تلك الروح المرنة من والدي، ربما لم تكن لتتولد لدي تلك الرغبة الصادقة في ملازمته والذهاب معه إلى الميناء يوماً بعد يوم.

ومن المواقف الطريفة التي لا أنساها في ذلك الميناء، موقفٌ حدث حين كنت طفلاً في السابعة من عمري؛ فقد كان أبي يجتمع بأصحابه في مجلسٍ بغرفةٍ بمحطة بترولٍ قديمة هناك، وكان أحد أصدقائه دائماً ما يرمقني بنظراتٍ حادّة بقصد إخافتي، وكان معروفاً بصوته المرتفع وحدّة طباعه. كانت نظراته تزعجني، وبالرغم من أنه ربما كان يفعل ذلك على سبيل المزاح، إلا أن الأمر لم يَرُق لي، ولم أحدث والدي عنه، بل قرّرت في نفسي أن أنتقم منه بطريقتي!

وبينما كنّا جالسين في المجلس، خرج ذلك الرجل إلى المرحاض المجاور، فتبعته بهدوء، وعثرت على حبلٍ أخضر اللون مُلقىً على الأرض، وكان للباب قفلٌ خارجي، فأقفلته بالحبل بإحكام، وعدت وجلست إلى جانب والدي وكأنني لم أفعل شيئاً. وما هي إلا دقائق حتى سمعنا طرقاً قوياً وصراخاً هائجاً من الداخل، إذ ظنّ الرجل أن أحد أصحابه الكبار استهان به وأقفل عليه. كنتُ أرى نظرات الصدمة في أعين الجالسين وهم لا يعرفون ما الذي حدث، فهرع أحدهم وفتح الباب، ليعود صاحبه غاضباً يتوعد الفاعل، بينما كنتُ أنا أتظاهر بالبراءة مستغلاً صغر سني الذي يبعدني عن الشبهات.

انتهى المجلس وذهب الجميع ولم يستوعبوا ما جرى، لكنّ والدي بحنكته وهدوئه ذهب في اليوم التالي إلى عامل المحطة وسأله: «هل رأيت من أقفل الباب البارحة على صاحبنا؟» فأخبره العامل أنني من فعلت ذلك، ولم يكن من والدي إلا أن استقبل الأمر بحلم، ومنذ ذلك الحين وإلى يومنا هذا، تحول ذلك الموقف إلى حبل مودة موصول؛ فكلما رآني صاحب والدي ضحك واستذكر الموقف، وكلما زاره والدي سأل عني بحفاوة، لتتحول النظرات الحادة القديمة إلى محبةٍ ومودّةٍ متبادلة امتدت عبر السنين.

وإلى يومنا هذا، يتملكني العجب كلما تذكرتُ كيف كان والدي يتسع صدره ويتحمل إيقاظي له في الهزيع الأخير من الليل، عند الساعة الثالثة أو الرابعة فجراً، لمجرد أن يجلس ويشاهد معي مباريات المصارعة الحرة. كنتُ أعرف أنه يحب متابعتها، وكنتُ أشاركه الأمر نفسه؛ وفي ليالي

الصيف الطويلة حيث يحلو السهر، كنتُ أهرع إلى سريره لإيقاظه ما إن يبدأ التلفاز ببثها في تلك الأوقات المتأخرة، فكان يجاملني بكل لين، ويغالب نومه ليجلس إلى جواري يتابعها معي. واليوم، وأنا أنظر إلى الماضي بعين النضج، أدرك يقيناً أن المصارعة لم تكن أولويةً لرجلٍ لديه كل هذا النهار بكدّه وتعبه وامتلائه بالعمل، وأنه كان ينتظره استيقاظ باكر مع خيوط الفجر الأولى ليطلب رزقه؛ لكنه كان يفعل كل ذلك لغرضٍ واحد: أن يطيّب خاطري.

لقد أعطاني الله سبحانه وتعالى في الحياة نعماً كثيرة، وله الحمد، لكن ثاني أعظم نعمة بعد الإسلام أن جعل هذا الرجل أبي، فأنا أفخر به في الدنيا، وأفخر بأن أكون جزءاً من حياته، وأحسبه عند الله من الصالحين، وأسأل الله أن يكون سبباً في أن يلحقني به في الجنة، حيث قال الله تعالى:

{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ۚ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ}.

فالله يكرم الآباء بأن يرفع الذرية المؤمنة إلى منزلة آبائهم العالية في الجنة، ليجتمع شملهم، دون أن ينقص من أجر الآباء وثوابهم شيء.

وأخيراً أقول: أعددت هذا الكتاب لسببين، وأسأل الله الإخلاص في ذلك، السبب الأول أن سيرة والدي العطرة لا بد أن توثّق وتُخلّد، فإن تخليد أسماء أمثاله من الرجال الصالحين الخيّرين منفعة للأجيال، والسبب الثاني أنها طريقة من طرق شكر والدي وبرّه، والتعبير عن امتناني له، والتكفير عن كل تقصير بدر مني، أو خطأ صدر مني فضايقه.

والله غفور رحيم.

من راشد خليفة بن فاضل المزروعي

-انتهى-

"شجرة العائلة المختصرة"

آل فاضل بن خليفة بن بطي المزروعي

فاضل بن خليفة بن بطي المزروعي
(الجد / رأس العائلة)

أبناؤه (من الأكبر إلى الأصغر):

(الابن الأول) محمد بن فاضل
أبناؤه
- أحمد بن محمد
- حمد بن محمد

(الابن الثاني) عبيد بن فاضل
أبناؤه
- ثلاث بنات

(الابن الثالث) مطر بن فاضل
أبناؤه
- فاضل بن مطر
- محمد بن مطر
- ابنتان

(الابن الرابع • راوي السيرة) خليفة بن فاضل
أبناؤه
- فاضل بن خليفة
- عبدالله بن خليفة
- محمد بن خليفة
- مطر بن خليفة
- خالد بن خليفة
- صلاح بن خليفة
- أحمد بن خليفة
- راشد بن خليفة
- سعيد بن خليفة
- أربع بنات

سلسلة النسب

01 ينتمي آل فاضل بن خليفة بن بطي

02 آل بن فاضل

03 آل غنام

04 المزروعي

05 بني تميم

مِن فريج بن فاضل لجميرا الثالثة

سيرة حياةٍ ودروسٌ ملهمة

يرويها خليفة بن فاضل المزروعي
ويعدها راشد خليفة بن فاضل المزروعي